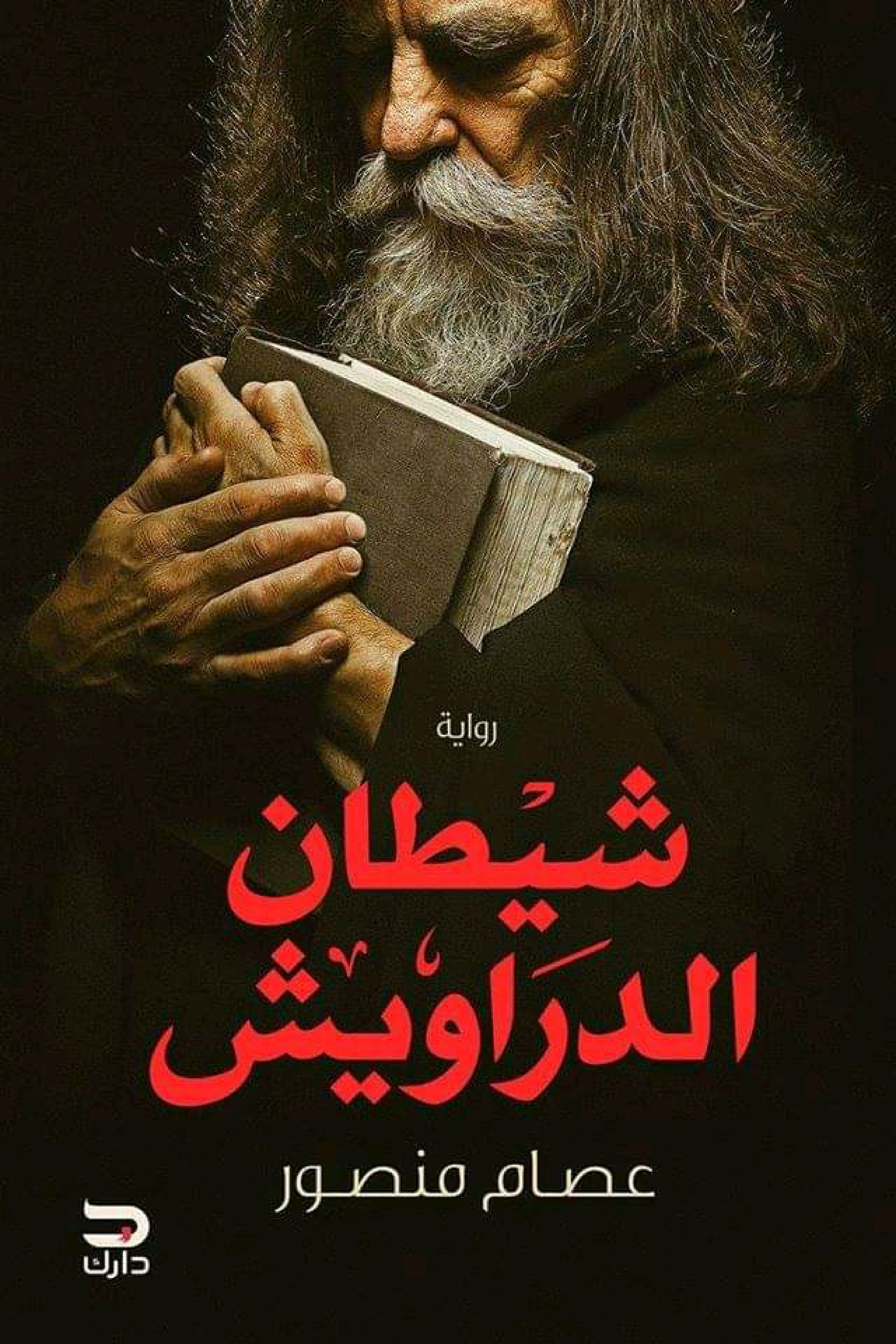


رواية
شيطان الدراويش
عصام منصور
دارك

دارك

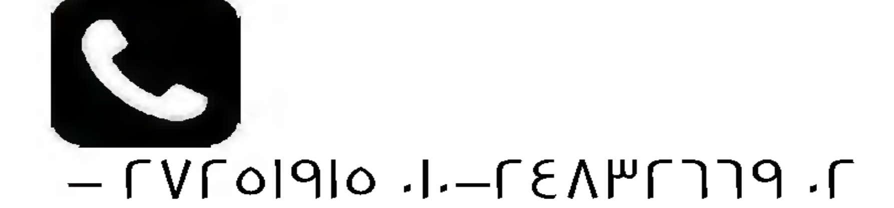
للنشر والتوزيع



شيطان الدراويش









١٥ ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.

شيطان الدراويش

عصام منصور

تصميم الغلاف : كريم آدم

تدقيق لغوي : لمياء مختار

رقم الإيداع : ٢٠١٦ / ٢٣٥٩٨

الترقيم الدولي : ٩٧٨ – ٩٧٧ – ٨٥٣١٦ – ٥ – ٧

الطبعة الأولى : ٢٠١٧

عصام منصور

شيطان الدراويش

رواية


دارك
للنشر والتوزيع



إهداء

إلي جدي الأكبر، السيد الشريف (ضاحي)، حفيد السيد الشريف (محمد الأكبر)، حفيد السيد الشريف صاحب الوقت (عبد السلام بن مشيش)، حفيد السيد الشريف (إدريس الأول)، مؤسس دولة الأدارسة.

" إن من عباد اللّه عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من اللّه تعالى "



الجزء الأول

أعتاب الأوركيد

وردة

استغل ملك الريح تأجج الشمس كعادتها منذ الأزل، ودفعها لتفاعلات طقس الأرض، كي يسوق فيوض الرياح، فتهب على قلعة (قايتباي) بـ (الإسكندرية)، لتبتهج الأحجار المنصوبة منذ القرن الخامس عشر الميلادي، ويصفر الهواء المرح بين جنبات ممرات قلعتها، كجوقة ربانية مجيدة. واستمرت قوة الهواء في التراجع، وهي تتوغل جنوب البلاد، حتى صارت مجرد أنسام صيفية شحيحة، مع وصولها للصعيد، وتسللها من الجهة البحرية منهكة، لتلك الدار المبنية بالطين اللبن؛ حتى داعبت وجنة الصبي الأزهر، قبل أن تتبدد داخل رئتيه الفتيتين، فتنفس نسيمها بعمق، لعل الهواء القادم من (بحري) كما يطلقون على الشمال، يخفف الحر اللافح. هو لا يعرف ما الذي ينبغي الشعور به بالضبط أمام محدثته، أو كيف يرد على جدته الرؤوم (الشريفة رقية)، المعروفة في تلك النواحي بريف (سوهاج).



الموت مازال فكرة مبهمة في وعيه الرقيق، والاختفاء لا يختلف كثيراً، حتى ولو ذكر بالتوازي مع الموت، ولكن جدته ربتت على ظهره حتى يعاود اللعب، وهي تكرر:

قد فوضت أمري وأخبرتكم.. إن أمكما قد ماتت، وأبوكما اختفى.. وعندما تكبران ستفهمان أكثر.

تأمل (سراج) شفتيها، والخطين الأخضرين على ذقنها، وصوت نهيق بعيد يتناهى لأذنيه الدقيقتين، ثم نظر إلى توأمه، وعادا للعبهما بأعواد بسيطة من البوص.. بينما رفض شقيقهما الأكبر الجلوس والسماع منذ البداية، مفضلا الجري بالحمار في الحقل الممتد أمام الدار، كعادته، رغم توبيخ جدته له بسبب نشاطه الجم، وحمولاته من جبال الغبار، وعدم سقيا الحمار في هذا الطقس الجنوبي الحامي.

كان (سراج) يتذكر الجنازة، واعتراضه على صعود أمه للسماء كما أخبروه وقتها، ولكنه ما فتئ ينتظر عودتها صباح كل يوم.

بعد دقائق خرجت المرضعة، ووضعت (فكرية) في حجر الشريفة، ثم كالعادة حاولت التملص:

بحق الكعبة يا سيدتي.. لن أنال مليماً.



لا ترهقيني يا أم (جمال).. عليك بالتزام الشهرية.

تصنعت ضيقًا مع رضوخ، عتابًا مع استسلام، حرجًا مع الكثير من اللهفة التي لا يمكن إخفاؤها إلا بمشقة:

هذا الشهر فقط يا كبيرتنا.. بعدها لن أرضع المحروسة بمال الدنيا، يكفينا شرف القرب من مولاتنا.

ولم تول الشريفة اهتمامًا بإحصائها للملاليم أثناء مغادرتها، إذ ألقت بصرها سريعًا على الرضيعة الغافية، وقد أشرق وجهاهما بالنور والرواء. هي حبًا ورقة، والرضيعة هناءة في نومها الصامت. وقالت للغافلة كقطة بيضاء حديثة الولادة:

وأنت يا (فكرية) ستعرفين أيضًا يومًا.. ولكنك صغيرة للغاية الآن.. صغيرة للغاية.

وقبلتها بحنان غامر، طالما وزعته على التوأمين عندما كانا يرضعان من ثديي أمهما في نفس الوقت، ويشبعان في نفس الوقت، وينامان في نفس الدقيقة، كعادة التوائم، وفكرت في حزن صامت في ابنتها الوحيدة الراحلة.. تاركة أولاء الأحفاد أيتامًا. ثم دلكت صدرها فوق القلب، عندما



عاودها ألمها العميق، كأنها تريد اختراق قفصها الصدري، لتضغط على القلب المسن مباشرة.

القلب الذي طالما ضحك وأطلق الزغاريد، في ليلة العمر، عندما عقد (حلمي الغرباوي) قرانه، على ابنتها (وردة لبيب).. وردة المحافظة كلها، بل الصعيد بأسره.. كم كانت رقيقة كزهرة يانعة ليلتها، وكم بدا عريسها كفارس، وهو يرقّص جواده بمهارة وثقة على غناء المزمار البلدي، وقد لف رأسه بعمامة بيضاء نظيفة، واستمرت فروسيته حتى أنجب التوأمين.. ثم بدأ يتحول لوغد.. وغد لا يليق بكونه أباً للتوأمين العزيزين.. ربما نال (رشاد) شيئًا من خصاله الدنيئة، فهو ابنه البكري، الذي استطاع الحصول على والده في فترة البقاء، ويا ليته ما عاصره أو اتصل به، ويا ليته ما تشرّب منه العنف والاستهتار وسرعة الغضب، سرعة الغرور، سرعة التدليل.. بعد هذه الفترة بحسناتها وشرورها، بدأ غياباته في المحافظات الشمالية البعيدة.. وبدأ مجونه.

(رشاد)، استغاثت منه أمه نفسها.. (وردة) العطوف كانت تبذل قصارى جهدها للسيطرة عليه بمفردها، مع غياب الأب، حتى أنها كانت تخشى عليه من غضب (حلمي الغرباوي) لو أصاب التوأمين بالأذى، ولم تجد الأم والجدة من حل، سوى أن تربي الأخيرة التوأمين في منزلها الريفي، حتى تنصلح



أخلاق (رشاد)، ولكن والده كان قد بذر فيه البحث عن القوة والرياضة، ولو بالعنف، في عالم غير مأمون، عدائي، غير مصمم لحماية البشر، ولا تصلح فيه إلا المادية، ولم يفلح رفق و رقّة (وردة) في حصار شطحات ابنها الأكبر.

وبعد أن أنجبت جارتها أم (فكرية) الأرملة، وأصولها من (شطورة)، ووضعت وليدة قوية الجسد منذ أشهر، لحقت بربها إثر لدغة حية من حيات الحقول، تاركة رضيعتها لرب كريم، فأرضعتها (وردة)، وأشفقت عليها، حتى وقعت الواقعة.. ورحلت بدورها فجأة، واختفى (حلمي الغرباوي) من دون سبب مفهوم.

كانت النازلة أكبر من المأزق، ولكن الأطفال الأربعة لم يكن لهم سواها، يومها بدأ ألم قلبها، ويومها بدأت تربي الإخوة الثلاثة وأختهم في الرضاعة، ويومها أقسمت أن تخبرهم بالحقيقة.. كل الحقيقة.

****

تواثب (سراج) جسديًا، وقلبيًا، وهو يتشبث بيد خاله (لطيف)، بعد أن استجابت جدته الشريفة لتوسلاته، وأمرت ابنها الوحيد باصطحاب الصبي لمولد (أبي القاسم) الشهير، وقد أنساه قلبه



المتعلق بالمناسبة المثيرة، كل سخريات (رشاد) من سذاجة خاله المعروفة، وطيبته حد الضعف والخجل. وكانت جدته تقول له أن خاله (لطيف) وأمثاله من الدراويش هم (عيال اللّه)، ولا داعي لتقليل احترامهم مثقال ذرة، ولم يتوقف إجلال (سراج) لخاله البسيط منذ أن سمع اللقب العجيب، وقد بدا أن له وقعًا مهيبًا.. عيال اللّه..

وفي المولد امتطى الأرجوحة، ولعب كل الألعاب، وتفرج على الحاوي والرفاعي، وضحك على القراجوز؛ حتى حانت الفقرة الكبرى التي يُطلق عليها اسم (الدوسة)، وفيها يدوس حصان شيخ الصوفيين على أجساد شباب الطريقة، دون أن يصابوا بأذى، رغم استحالة هذا، ورغم نفور أي جواد طبيعي غريزيًا من هذا التعذيب، ولكن العرض المذهل كان يجري وسط التكبيرات المتكررة باسم اللّه المفرد (اللّه)، ثم ينهض المدوس بمرونة فائقة كأنه يعلن أنه بخير وفي أتم الصحة، وأن كرامات الطريقة متحققة؛ ثم تبدأ الإعجازات الحقيقية، عندما يبدأ المستعرضون في ابتلاع الأفاعي، وغرس الأسياخ في الخدود بدون نزف أو ألم، والنوم عراة على قطع الزجاج الحادة، وغيرها من المذهلات، التي طار لها لب الناس، وزاد اعتقادهم في مشايخهم، واتسعت معها أعين (سراج) حتى أنه نسي الدنيا وما فيها،



ولم يبق أمامه سوى شئ واحد كبير، هو الأكبر والأعظم.. المولد.

ولكنّ لكل وقت أذاناً ونهاية، فلما حان وقت العشاء، اصطحبه خاله للصلاة، وحاول هو إمطاره بالأسئلة، لكنه وجد فيه شيئاً غريباً لم يستطيع تفسير فحواه. رآه وقد اكتسى بسكينة مفاجئة، وهو يصافح بعض الفقراء الجامدين، الذين كانوا يبتسمون له في ود وتقدير، بينما لم يلاحظه بعضهم من الناشطين، حاملي المسابح والبخور لبيعها، رغم أنه كان يحييهم بلسانه على الأقل، وبعد الصلاة سأله (سراج):

هل كنت تلقاهم كل عام يا خالي؟

من هم؟

أولئك الذين صافحتهم؟

تعجب الرجل للحظات، ثم تمتم بشئ ما، ورفع يديه بالدعاء والشكر، قبل أن يربت على الطفل، وهو يبتسم في بلاهة:

لا أعرفهم.



كيف هذا يا خال.. لقد رأيتك تصافحهم.. بينما لم يهتم بك الآخرون.. رغم أنهم فقراء كذلك.

هؤلاء غير هؤلاء.. لكني لا أعرف أياً من الجميع.

للحظة تأمله (سراج) في شك.. هل عاد خاله لسذاجته.. لكن الرجل أسرع يقول بحماس:

هيا نشتري النبَق وحَب العزيز.. أعرف امرأة غجرية تبيع الأفضل.

وعاد (سراج) للاندماج في خبايا المولد، وزحامه وهداياه ودراويشه ذوي المسابح والطواويق[1] ، وقد نسي الموقف. لدى عودتهما لدار الشريفة (رقية)، كان (صلاح) يبكي بحرقة، وقد أعلن استياءه من تحرش شقيقه (رشاد) به، وهو يصيح من وسط دموعه:

استيقظت لأجد خالي قد اصطحبك أنت فقط، بدأت البكاء لكن في هدوء، وقد كنت أبغي رفقتكما، وجاء (رشاد) يوبخني على بكائي، ولإغاظتي حطم زهرتي.

كان يمسك بزهرة من البوص والورق، صنعها خلال يومين كاملين ليعلقها فوق فراشنا المزدوج، وقد



تمزقت شر ممزق، بينما (رشاد) يبتسم في تشفٍ – من بين دموعه – بعد أن نال عقابه من جدتهم.

ولكن في نهاية اليوم، لم يفكر (سراج) فوق فراشه سوى في أضواء المولد الملونة.

****

عيال اللّه

بعد سنين...

قالت (سهام) وهي تعترض على طلب والدها بالرحيل:

دعنا قليلا يا أبتاه.. لقد بدأت للتو في قص ما أصابنا من جراء الفيضان، لـ (صلاح).

أصيب (صلاح) ببعض الحرج، وقد وصل لنهاية المرحلة الثانوية، وهو يقول للسيد (دياب حجاج) صديق والده القديم، وملك تجارة الأثاث والعاديّات:

لقد انجرف بنا الحديث، كانجراف السيل، معذرة يا عماه.. سنلتقي قريبًا لا شك يا (سهام).

قالها، وهو يرنو إليها بنظرة حب لا يعرفها مخلوق سواها، فدق قلبها الصغير في سعادة، وهي



تبادله النظرة بابتسامة. ابتسامة وهنَ لها قلب آخر خفاق، تحمله شقيقته في الرضاعة (فكرية)، وقد ظهر عليها نضج قبل الأوان، جعلها كشابة متوردة ملفوفة القوام، تربت مع (صلاح) الرقيق الوسيم، وهي تخفي حبها غير الشرعي له، وقد مال قلبها على الرغم منها، فلم تكن بيدها حيلة.. هكذا هو الحب الأول.. ولكنها تعودت على الحرص، والصبر. أما السيد (دياب) فقال بطريقة طبيعية، وهو يبتسم فيُظهر أسناناً صفراء، زينتها الثقوب السوداء في جوانبها، واللثة المتآكلة القبيحة تحتها، من تأثير الأفيون المذاب مع الشاي:

ربما وربما لا.. فلقد قررت نقل تجارتي إلى (بورسعيد).. بعيداً عن الصعيد كله.

وكانت صدمة لـ (صلاح).

أول صدمات عمره. سترحل (سهام).. لتقتله سهام حبها.

وقبل الوداع المباغت، انتحى بها جانبًا، ومنحها زهرة من نوع (الأوركيد)، ثلاثية البتلات، كان قد حنطها حتى اكتسبت لوناً أبيضَ باهراً، وهمس لها:



رأيت في حزنك أنك لم تكوني على علم، وأن الرحيل فاجأك مثلي.. هذه الوردة ستذكرك بأنني لن أتركك. سأدخل الجامعة، ثم أطلب يدك.. اطمئني.

(صلاح).. أنا كذلك لن أتخلى عنك مهما فرقتنا المسافات.. سأراسلك.

بعد هذا بساعات، أحاط به الليل وحيداً، فوق المصطبة خارج الدار، حيث مكانه المفضل لمراقبة الأهلة والبدور، وقد سهم، بعدما صار بدون سهام، وبينما هو كذلك فوجئ بجدته الشريفة (رقية) تقترب:

جدتي.. ما الذي أجبرك على ترك فراشك وأنت واهنة القلب.

اجلس يا (صلاح).. فقلبي علاجه في الدواء، بينما قلبك لن تعالجه إلا كلمة.. فاسمعها مني.

بدا عليه الحرج بشدة، ولكنه أنصت في احترام:

إن أمك (وردة) رحمها اللّه، قد أنجبت وردة ثلاثية البتلات.. كتلك الزهرة التي كنت تحنطها أمس.. بتلة نارية، وبتلة نورانية، وبتلة عطرية.. أنت تلك الأخيرة.. والعطر الأصيل لا يتبخر بسرعة، فاحتفظ

بعطرك ولا تخش شيئا، ولا تنس أن (وردة) هي من جاءت بك، ووردة هي من ستودعك.. في الغد.. أحضر إخوتك كلهم، حتى (فكرية).. التي أوصيكم بها خيراً.. حان وقت العود، ولم يتبق الكثير.

أعاده حديثها عنها لليلة دفنها على أضواء المشاعل، عندما أصاب الحزن الطفولي توأمه (سراج) بكفر لا حساب عليه، جهر فيه وقتذاك بعدم اعترافه بإله يقبض الأمهات الحانيات إليه.. وكان يتضامن معه – كالعادة – رغم هلعه من هذا الغضب العارم.

طافت به الذكرى كومضة خاطفة، قبل أن ينتبه لكلمات جدته المزعجة، التي خوفته على صحتها أكثر فأكثر..

خيراً يا جدتي.. بارك اللّه في صحتك وأظلك برعايته.. لماذا يؤانسني أول حديثك، ويقلقني آخره. أي عود؟!

افعل كما تؤمر.

ثم مدت إليه يدها كي تنهض، وساعدها حتى عادت ببطء لفراشها.

****



لم يكن أصعب من إقناع (رشاد) بالمجئ حسب أمر جدتهم، وقاسى (صلاح) من أجل انتزاعه من المقهى الأمرين، ولم ينقذه إلا (سراج) العزيز، الذي ما أن رآه (رشاد) حتى ترك النرد، ونهض إليه. لم يكلف نفسه بالنظر حتى لوجه (صلاح)، وهو يلعب مع صديقه (أيمن) الذي يشاركه الضخامة والفتوة، لكن ما أن رأى (سراج) حتى توجه نحوه في توتر:

هل جئت أنت أيضًا لتنحّيني عن موئلي؟

كان التوأمان متشابهين للغاية، لولا أن (صلاح) يختلف عن بقية شباب البلدة، في ارتدائه القميص والبنطلون، كفتيان بندر (سوهاج) من أولاد الذوات. وبرصانة وضع (سراج) يده على كتفه:

تعال يا (رشاد).. أعرف أنك كنت تحب أمنا كثيرًا.

ارتجف جزء من شفة (رشاد) السفلى، وقال بعصبية متناقصة:

وما علاقة المرحومة بحديث الشريفة.. إنها تحبكما أكثر، فلتهنأ بكما، وتدعني لحال سبيلي.

هي تحبك أنت أيضًا.. فأنت أكبر وأول أحفادها.. وللمرحومة شأن بما ستخبرنا به.



راوده العناد جليًا، أبيًا، ولكنه رضخ، وهو يتحرك معهما على مضض، وصديقه الشقي يهتف به بمرح:

لن أغلق الطاولة.. ولن تفر من دورك أيها المخادع.

ابتسم له (رشاد)، ثم عاد وجهه يتجهم أمام أخويه.

وفي الدار، جلس التوأمان عن يمين ويسار الشريفة، التي بدت كالمودّعة، وقد غاص بها فراشها وابتلعها من أثر الرقود، بينما وقف (رشاد) عند نهاية الغرفة، كأنه ينتظر أن تفرغ كي يغادر سريعًا، ولاحظت هي كراهته فبادرته:

لا مزيد من العتاب يا بني.. سبق السيف العذل.. لا مزيد من اللوم، على العناد والمعصية، على إهمالك للتعليم، على ملازمتك رفاق السوء.. فقد حان وقت العودة.. وله الحول والقوة. لكنك لم تصدق، ولعل حبك لها حرضك على ألا تصدق، حبك المستتر الصعب. لقد ماتت منذ زمن.. واختفى أبوك كما أخبرت شقيقيك. ولكني وقد تعهدت بقول الحقيقة فاسمع ما سيشيب له الولدان عن نهاية أمك.. (وردة) التي غيبها الموت، والجبروت.

توقفت لتسعل بصعوبة، وخفوت، ودخلت (فكرية) مسرعة لغرفتها، وقد غيرت لها المنشفة،

ووضعتها على جبهتها مبتلة، لتخفض من حرارتها، ودموعها تغرق وجهها في صمت، بينما تجمد (رشاد) وقد انحشرت أنفاسه في حلقه:

إن أباكم ظل مطارداً.. ولكنه كان ثعلبًا، يحتاط لأمره، ويخفي أمر تجارته.. لكن ليس عن زوجته.. لقد كشفته (وردة)، واستعطفته أن ينقذكم من مصير قاتم، ولكنه لم يتعظ.. ولما واجهته، غرر به شيطانه، وركبه، وخوفه، فقرر إنهاء الحياة. إنهاء الحب. إنهاء الأمل. في ليلة سوداء، لم يشهدها صدفة إلا خالكم (لطيف).

شحب وجه (صلاح) حتى حاكى لون قميصه الأبيض، وتوقفت أصابع (سراج) عن التسبيح على مسبحته، بينما التمعت عينا (رشاد) وقلبه يدق بعنف، حتى ليكاد يحطم قفصه الصدري، والشريفة (رقية) تقول بصلابة كبيرة، بلا أي نوع من أنواع الحزن أو المرارة:

نعم.. كان (صلاح الغرباوي) تاجراً للمخدرات، وعندما كشفته (وردة) وهددته من أجلكم، قتلها بدم بارد.. وهرب.

ولم يتحمل (صلاح).. لم يتحمل أبداً.. وانهار كيانه وهو يهتف بألم:

فعل ماذا؟ يا إلهي.

وطأطأ (سراج) رأسه مع هتاف توأمه المر، وقد شعر أنه قد أضيف لسنه عشرون سنة، أمام هذه الحقائق المذهلة، بينما ضغط (رشاد) أسنانه وقبضته، وصاح بغضب مفرط:

الوغد.. أقسم باللّه أن أقتله شر قتلة.

اتسعت عينا (فكرية) في رعب مع التهديد الجاد، وتأملت (رشاد) كمن تنظر إلى وحش، ينتمي لقصص الغول والمزييرة والشمامة، إذ كان عنفه الطبيعي يؤهله لارتكاب الجرائم في المستقبل؛ واستاءت الشريفة من سبابه في حضرتها، وشعرت أنها قد أنهت رسالتها، فاستسلمت للوهن، كشجرة جميز عجوز حان وقت استحطابها، وأمرتهم بتركها، باستثناء (فكرية).

خرجوا، و(سراج) يتبادل معها نظرة خاصة، أومأت بعدها في صمت، فأومأ برأسه كأنه يفهم، ويتفهم، وعض شفته في ألم حاد.. ألم لا يمكن أن يحتمله أشد رجال الصعيد بأسًا؛ ثم واجه الطبيب في صحن الدار، وكان قد قام بكشفه عليها قبل هذه المناقشة والمكاشفة، وبينما يرحل (رشاد) كالعاصفة، قال الطبيب بإشفاق مدروس:



كما أخبرتك يا (سراج).

لا وجود لحل إذن.

كان قد خبر إيمانه أول مرة، لذا فقد قالها بلا مواربة هذه المرة:

سأنتظر حتى الغروب. لن أحتاج للمزيد قبل العودة إلى البندر.

سأل (صلاح) بدون فهم:

لن تحتاج للمزيد من أجل ماذا أيها الحكيم؟

تصور الطبيب أنه مع توأمته لـ (سراج) ثابت الجنان مثله، وقبل أن يستطيع (سراج) إيقافه خشية على توأمه، أجابه الطبيب مباشرة، وبلهجة عملية:

من أجل توقيع شهادة الوفاة.

وهنا لم يقتصر انهيار (صلاح) على كيانه، بل شمل أيضًا وعيه. وبينما تنعق بعض الغربان البعيدة، سقط بين أذرع شقيقه والطبيب.

وبعد ساعات معدودات، ارتفع عويل (فكرية) في سماء الحقول القريبة.



* * * * * * *

صلت البلدة كلها تقريبًا على الشريفة، الفقهاء والأعيان والفقراء، وحتى (رشاد) نفسه، الذي لم يكن يدري حتى كيف يمكن أداء هذه الصلاة، التي لا سجود فيها ولا ركوع.

في الصعيد، تزيد مكانة المرأة كبيرة عائلتها، وتسمو بشكل أعظم لو كانت تنتسب للأشراف، وآل البيت النبوي.

لكن الغريب أن (سراج) نفسه لم يحضر جنازة جدته.

وكان هذا آخر ما يمكنه تخيله على الإطلاق.

لم تكن هناك قوة يمكن أن تجبره على عدم المشاركة في دفن جدته، باستثناء خاله (لطيف).. والذي جذبه بعيداً عن ترتيبات جنازة أمه كما اعتبرها، وأقرب الناس إليه، وأجبره على الذهاب معه لجنازة أخرى، وسط دهشته وذهوله التام..

ولكن (سراج) انطفأ عقله وسراج حكمته، عندما همس خاله في أذنه، بينما يجذبه كالسحر:

تعشق تفز.



لم يعتره في حياته ارتجاف، مثل ذلك الذي أصابه مع الكلمة. لم يفهم معناها في البداية، ثم عندما وعاها لم يفهم مغزاها، فلمن يتعشق؟! ولماذا بدا خاله لوهلة مدركًا لأمره، وهو المذهول عن الدنيا طيلة السنة.. ثم تذكر ليلة المولد القديمة، ليلة الإدراك الفائق الذي انتاب خاله، ومصافحته لفقراء السمت، وجهاء الخلق.. لكن الآن؟ الآن؟ وقت دفن أمه الكبرى؟ يا له من توقيت.. يا له من جنون.. ولكن مهلًا.. (فلتمسك عليك لسانك).. هكذا حدث نفسه، وهو يتذكر أمر حبيبته الراحلة له بحفظ الأدب مع (عيال اللّه).. هذا ليس جنونًا..

حاذاه حتى التحقا بالجنازة الثانية، في الطرف الآخر من البلدة. لم يكن هنالك إلا نفر قليل، بينما معظم أهل الفقيد أنفسهم في جنازة الشريفة، وقد أيقن (سراج) في أعماقه أنهم فعلوها نفاقًا لعلية القوم من الأعيان والوجهاء، وتزلفًا للقياهم أثناء العزاء، ولو على حساب ميتهم هم. أتكون لطيفة من خاله (لطيف)؟ أن يصليا على هذا الفقيد المعدم، مقابل ترك أهله له من أجل فقيدتهم هم؟

ولكن ما علاقة هذا بالتعشّق؟

ارتج الأمر على (سراج)، وبدا كمن يتابع حلمًا لا يشارك فيه بشكل كامل، وهو يسأل خاله للمرة

الأخيرة:

أنترك جدتي؟ أنترك أمك يا خال؟

يخرج له من جلبابه الأزرق بعضاً من حب العزيز، ويجبره على الحصول عليه، وهو يقول له بابتسامة عريضة:

ونترك الدنيا كلها.. ما بالك لا تريد المؤانسة؟

مؤانسة من؟ أهم من تريدني أن أعشقهم؟

ضحك بصوت مكتوم، لاقترابهما من الجنازة، ثم أشار للتابوت في اهتمام، كأنه يدعو ابن أخته للسير في خشوع، وأن يدع عنه تساؤله الساذج.

وكان النفر أقل من أن يعلو تكبيره وتهليله على عويل النساء، والذي تسلل لأذن (سراج) بقوة، وأصابه بحزن إضافي، يفوق مرارة حزنه الخاص. زوجة المتوفى بدت كتجسيد حي لمعنى المأساة والفقد، وهي تصرخ وتحثو التراب فوق طرحتها:

(العيش من بعدك حرام يا حبيبي، مين هيجيبلي الفرحة من بعدك؟ سبتني وبنتك وخدت معاك نور عيني، إزاي هشوف بعد (صابر)؟).



ومما زاد الطين بلة، والجزع ألمًا، نواح ابن المتوفى الذي لم يكمل عامه العاشر بعد:

(هتوحشني يا ابا.. مين راح أقول له أبويا وانت ضعت مني؟ كنت بتقول لي إني هكمل تعليمي يا ابويا.. مين هيقول لي أنا واخويا: عايزكم تكونوا رجالة؟).

ولم يستطيع كبح دمعة من الإشفاق الكبير، و(لطيف) يفسد هذه اللحظة النبيلة بهمسه له بمكر:

انظر.. إنهم حتى لا يعرفون طريق المقابر.. مساكين، لا يريدون الثواب، ولا الآخرة.. يريدون الدنيا.. أراهنك أن بعضهم نسي حلب جاموسته اليوم، ويريد العودة سريعًا لداره وعياله.

استاء منه للحظة، ثم تنبه لخوضهم طريقًا بعيداً بالفعل عن اتجاه المقابر، فأسرع لمقدمة الجنازة، وقادهم للطريق الصحيح، وبينما يقومون بالدفن وتهدئة غبار التربة بسقياها، أسفل شمس شديدة السخونة، لم ينفح أحدهم المقرئ كي يدعو للمتوفى، وكان بعضهم يتثاءب، والبعض الآخر ينهمك في الحديث الجانبي بدلا من الدعاء للمتوفى، حتى يمر وقت الدفن وإغلاق الحفرة، فتقدم (سراج) بحزم، ورفع يديه بالدعاء الصادق



للميت.. الذي لا يعرف عنه أي شئ. وساهم (لطيف) في التصدق على اللحادين والفقراء، وقد نسيا للحظة كل شئ عن جنازتهم هم.

الحاج (ضاحي) كان يقرأ الفاتحة على روح ساكن أحد القبور القريبة، وكان (سراج) يسمع عن زهده وتقواه، ولكنه شاهد موقفاً غريباً هو بطله عقب انتهاء دفن (صابر).. لقد تنخم الحاج بلا تحرز عن يساره، فتناثر بعض لعابه على لحيته، وسقط البلغم على درويش طويل القامة، لا يمكن تحديد عمره بدقة، كان يرتدي جلباباً جديداً من مال الزكاة، ناصع البياض، تصادف مروره للتو، وكانت غرابة الموقف في أن الدرويش لم ينفجر فيه غاضباً، أو حتى يبتعد في غضب مكتوم على اتساخ الجلباب النظيف، بل كانت هذه الغرابة في مسارعته برفع ذيل جلبابه الجديد، ومسح لحية الحاج (ضاحي) من بقايا بصاقه الشخصي! ولمح (لطيف) الحاج فأسرع يصافحه هو والدرويش، فشعر (سراج) بوحدة مفاجئة، وكأن العالم كله يتأهب لما يجري بين الثلاثة، فتقدم منهم بحذر، فقط لتهبط النسائم على وجهه وروحه رغم حرارة الطقس، فيجد بين جوانحه بشراً وانشراحاً مجهوليْ المصدر. أشار له (لطيف) كي يقبّل يد الحاج، فأذعن على مضض، وكأن هناك قوة كونية تحثه على التصاغر، وقال له الحاج (ضاحي) بابتسامة خفيفة:

أما زلت غاضبًا من ربك يا ولد يا (سراج) ؟!

ارتجف على الرغم منه، وجف حلقه، وذكرى ليلة دفن أمه تلح من جديد.. ليلة أن رفض وجود القابض الباسط، وشق عصا طاعة السماء.. ولكنه عدل عن هذا، وتاب إليه في حداثته عما قاله في حقه، فلماذا يذكره هذا الرجل بذلك الأمر التافه، الذي يغفره المولى لأي طفل ناعم الظفر؟ بل وكيف له أن يعرف القصة من أساسها؟ هل كان أحد السائرين في جنازتها؟

فِعال الطفولة الأولى يا سيدي.

الحزن يعلقها يا بني.. فأذهب الأثر بطي العِبر. لقد رأيته في الخراف البيض.. سر (زيدة) الصغيرة معهم.. الخراف البيض قد حفظت السر.

لم يبد على (سراج) وخاله أي تعبير خلا الحيرة، بينما اتسعت أعين الدرويش، وظلت أنفاسه مبهورة، وهو ينقل بصره بين الحاج (ضاحي) والشاب، كأنه عرف سر الكون. ولكنه أسرع يتدارك موقفه، كعاقل رصين ضبط نفسه في موقف سخف:

الحاج (ضاحي) يدخر طوال العام، كي يشتري خروفاً أبيضَ جميلاً، يوزعه على زوار سيدي (الشاذلي)



لوجه اللّه، في (حميثرة) شرق (أسوان)، وذلك يوم (عرفة) من كل عام.. لذا فهو مشهور في نواحي بلدنا بلقب (أبي خروف).

(آه.. هو درويش ثالث إذاً).. قالها (سراج) في سره، ليبرر كلام الحاج. ومن ثم وقد تفهم، ابتسم للرجلين، واستأذن في الرحيل وهو يجذب خاله، الذي حاول الثرثرة معهما من دون جدوى، بل وتباكى كالأطفال عندما أجبره (سراج) الأكثر فتوة منه، كي يبتعدا.

للحظات شعر (سراج) وكأن الدرويش يكلمه، ثم أفاق من هذا الشعور بذهول، ليجد أن الدرويش الطويل يوليه ظهره، ويرحل خلف الحاج كالمُريد، فأغلق عينيه وفتحهما عدة مرات، ثم عاد يجذب خاله، وهو يسارع من خطوه بشكل أكبر وأكبر. كيعسوب مهتاج.

****

عندما عادا للدار مع غروب هذا الثلاثاء الطويل، فاجأهما (رشاد) عند الفناء الخارجي:

أي عار هذا الذي تحمله لنا أيها الخال العاقل الرصين؟ أما وقد صار من المخابيل، فهل ستسير أنت على خطاه أيها التوأم الغر كتوأمك؟ لقد أكل



الناس وجوهنا وهم يسألون عنكما في مدافن العائلة، فأين كنتما بحق اللّه؟

كانت المرة الأولى التي يتطاول فيها (رشاد) بهذا الشكل العلني على خاله، فصاح به (صلاح) في ذهول:

ما الذي تتفوه به يا (رشاد)؟ أتسب خالك؟

التفت له (رشاد) بعنفوان، كأنه سيهم بضربه كما اعتاد في طفولتهما، حتى أن (صلاح) انكمش بالفعل، وهو يتلقى الصراخ والرذاذ في وجهه:

اخرس يا امرأة ! يا أبا قميص وبنطلون !

قال (سراج) وهو يتمالك أعصابه بشدة:

اتركه وحدثني أنا.

سأفعل حالًا.

قالها وهو يتناول شيئًا كان يخفيه وسط القش في زاوية الفناء، وعلقه على ظهره، فإذا به بندقية طويلة، أثار منظرها الوجل في نفوسهم، و(لطيف) يقول له مرتجفًا:

هل ستقتل شقيقك؟



نظر له (رشاد) ساخراً:

بل سأقتل أبي نفسه.

ثم أردف في غضب مفاجئ، وقد بدا أن وفاة الجدة قد أزالت حاجز الحياء الأخير، بينه وبينهم:

لم يجبني أحدكما بعد.. هل أصابكما الصمم أم الخرس؟

كنا في جنازة أخرى.

أصابت الدهشة ملامح (رشاد) رغم استقوائه، وهو يرد على (سراج):

أي عته هذا؟ جنازة من؟ لقد صلت البلدة بأكملها وراء الشريفة في الجامع القبلي؟

كان هناك فقيد آخر في الجهة البحرية.. أخبره عن شخصه يا خالي، هل يدعى (صابر)؟

هرش (لطيف) شعره الذي غزاه الشيب، فتشعث، وهو يجيبه بعدم يقين:

لا أعرفه.. جاءني الهاتف فاستجبت. لعله من الأعيان.

أصاب (سراج) مزيج من الدهش والإحباط، بينما ثار (رشاد) وقد فاض به الكيل بلا رشاد:

لقد رزقنا اللّه إذاً بمخبولين لا واحد. سأقتل الوغد الذي أنجبنا وقتل أمنا، ثم بعد رجوعي، قد أفكر في الراحة منكما بدوركما.

أمسكه (سراج) من معصمه:

دع عنك الأذى، ولا تسهب في غَيّك.

دفعه بقوة كبيرة، حتى أنه ارتطم بخاله وكادا يسقطان أرضاً، وهو يقول بوحشية:

ابتعد أيها الأحمق أنت وذلك المجذوب، وشقيقك الفتاة، ورابعتكم اللقيطة.. ابتعدوا جميعًا واتركوني، كي أفعل الشئ الوحيد الصحيح في هذه الدنيا القذرة.

وترك الدار، وفي أعماقه تنتصر شهوة الانتقام على علته، على حبه لأمه.. فيصرخ الحب وهو يذوي.. ويطالب بنتيجة أخرى تليق ببهائه. انسرح أمام عيون (فكرية) الباكية، تنظر عبر خصاص الطابق الثاني، وقد سمعت كل ما حدث، فأحست وكأن النكبات ستتوالى بلا توقف بعد رحيل عمود البيت، وقبلته، ونوره.



ورغم المأساة ونهاية الأشياء، أسرع (لطيف) يحضر شيئًا كي يتناوله الأشقاء الثلاثة، وهو يحنو عليهم برفق بالغ، وهم يجارونه لخفة عقله، وتطرف مرحه، ومزيد رقته؛ وفي الليل، أغلقت (فكرية) عليها غرفتها من الداخل بالمزلاج، ونامت في فراشها، وهي تتأمل فراش كفيلتها الراحلة، التي كانت لها نعم الأم بعد ابنتها (وردة)، التي لم تعرف عنها سوى ما سمعته.. راقبت الفراش الذي خلا لأول مرة من صاحبته، وقد توسطه مصحف. كان عاليًا عن الأرض كيلا يثب عليه البق، مازال دفء الحشية ينبعث من أسفله، محتفظًا بثمالة حرارة صاحبتها، التي رقدت في مستقرها الأخير.

ظلت تراقبه، وهي تفكر في مرضعتها (وردة).. وفي ابنها.

ابنها (صلاح)، كانت الصدمات أكبر من تخيله، وجافاه النوم طويلًا في غرفته البحرية، حتى رأى في طرف الغرفة مواد التحنيط القديمة، وهوايته التي ودعها منذ أشهر، وبعض الأوعية التي يحتفظ فيها بفراشات قديمة، وجرادة سبق وأن حنطها، فتذكر (سهام)، والوردة التي حنطها لها، وابتسم باطنه ابتسامة خفيفة، لم تفلح في مغادرة سدم حزنه، وصواعق صدماته، كي تطفو على شفتيه، ولكنه شعر مع اسمها بحاجته للأمل، للمستقبل،



وكان عليه أن ينتظر شمس يوم جديد، فيرجع لترقبه موعد قبوله بمدرسة الزراعة.. حلمه الآني.

أما (سراج)، فكان (لطيف) يداعبه وهو يطفئ له مصباح غرفته، الذي يعمل بفتائل الزيت، ويقول له:

الآن تنام بعد هذا اليوم الطويل.. ثم تبدأ رحلتك.

ابتسم (سراج) ربع ابتسامة، ولم ييأس من إلقاء الأسئلة.. خاله يحب الألغاز، وتدهم عقله الرؤى، فيتهمه الناس بالخزعبلات، ولكنه لا ييأس من البحث عن عقل فيما ينطق:

رحلة سوى الأحلام؟

رحلة الروح.

أتقصد مغادرة الروح لأجسامنا عند الموت الأصغر.. النوم؟

لا.. بل رحلة العشق.. لا تنس: تعشق تفز.

فكر (سراج): إن اليوم كان شاقًا، تحاصره البلايا والمتاعب.. (رحلت أمنا الكبيرة، وفاتني دفنها، وارتحل أخي الأكبر مغاضبًا، وقد نفقده بدوره، لذا كان النوم رحمة أخيرة، مستحبة، تتسلل، وأشتهيها، لذا فقد تجاهلت سؤاله حول المزيد،



وتركته يطفئ المصباح، ويغادر، ويتركني أسقط في لجة الفرح بعد الترح).

****

الجزء الثاني

السرّ البوهيمي

في الغابات البافارية

صهيل.

السمع أول ما يرد إلي.

أعرف أنني (سراج حلمي الغرباوي) الصعيدي السوهاجي، لكني لست أعرف أين أنا.

رائحة وحل، ممتزجة بأريج أعشاب، وحشائش، وزهور برية.

ثم الرؤية.

أرى مرجًا، وجبالاً، وأراضيَ يتخللها نهر وأشجار. وجثة فارس ! لم أر فرسانًا من قبل، ولكن الرجل كان من فرسان القصص القديمة لا شك، بدروعه وخوذته وسيفه، وقد ابتعد جواده وراح يبحث عن سيد جديد.



أعرف أنني (سراج حلمي الغرباوي) الصعيدي السوهاجي، لكن هذه ليست (سوهاج)، والمكان لا ينتمي للصعيد، ولا حتى بر (مصر) كله.

لكن كيف لا يكون هذا الصعيد، وأنا صعيدي؟!

ما الذي يعنيه هذا، وآخر ما أتذكره نومي في نهاية يوم جنازة جدتي، يطمئنني خالي ويواسيني؟!

كان الطين كثيفًا في مكاني الذي وجدتني فيه، وعلى مقربة فارس آخر، أبيض حد الشحوب، كان هو الحي، وجواده مصاب بطعنة قاتلة، أودت به بعد سقطة عنيفة، انحشرت لها ساق الرجل فيما يبدو تحت الحيوان الضخم.

لم يلاحظني، وكان كل شئ يشعرني بدوار غريب، يتناقض مع كوني في حلم من أحلام النوم.. لابد أنه حلم بالتأكيد.

تعالى إيقاع الحوافر المكتوم، فأدرت رأسي، وأنا مازلت منبطحًا، فرأيت الرجل الشاحب يحاول تخليص قدمه من حصانه الميت. كلا هو ليس شاحبًا هذا لون بشرته الأصلي.. وهو ما يميز أجانب (أوروبة) كما حكى لي (صلاح)، المفتون بالبندر وحكاياته، وزواره من الخواجات.

الإيقاع يقترب بسرعة. أزحت الطين عن عينيّ لأرى بشكل أوضح، فتلطخ وجهي أكثر من طين كفي، ولكني استطعت تمييز الفارس المقترب وقد امتشق سيفه، يندفع نحو هدفه العاجز بلا حول ولا قوة. الشاحب سيلقى مصرعه من دون ريب. كان الطين يغمرني فلم يلاحظني كلاهما، واتخذت قراري عندما تحتم على المهاجم أن يمر بي أولا، فقفزت في اللحظة المناسبة، وألقيت بثقلي على مؤخرة الفرس، فاختل مسارها فجأة وهي تحمحم بذعر، وطاشت مع اختلالها ضربة سيف فارسها من فوق رأس الشاحب، وهي تنقلب به بقوة فوق بعض الصخور الخشنة، عدة مرات، ليدق عنقه، ولكنها نهضت سالمة، وجثته معلقة فوقها، ومن ثم تجمدت في حيرة.

صاح بي الشاحب بلهفة جنونية، تغلبت على مفاجأة ظهوري:

هيا.. أكمل المعروف وحرر ساقي.

تعالى الصهيل العنيف، فرأيت خمسة فرسان يندفعون نحونا، وقد ارتدوا أغرب أنواع الدروع والأزياء التي يمكن لإنسان مصري أن يتخيلها، كالقمصان مرنة الصلب، ذات الزرود، والأطواق الحديدية، والخوذة الحديدية ذات المخروط البارز أمام الأنف لحماية الوجه.. كانوا أناساً من حديد في



حديد.. خمسة نصال، تحمل خمس منايا.. فنهض قلبي الأعزل يتواثب، ويرجوني الفرار، ولكن دهشتي الهائلة منعتني، وكنت بحاجة ملحة لإجابة تساؤلاتي، قبل أن ألقى مصرعي على الأقل. ليكن هذا حلماً أو رؤيا، أو حتى هلاوس أفيون، لكن مخي اعتاد الأسئلة واعتاد تلقي إجابات، حتى لو لم تشف غليلي، ولكنها تظل بوابات أو مداخل لأعظم شئ في الوجود..

المعرفة.

وهذا الرجل ألقى عبارته بلغة سلافية، أو قريبة منها، وأمكنني فهمها بسهولة كأنها لغتي أنا، فكيف يعقل هذا الأمر؟ كيف علمت بأصل اللغة نفسه؟ كيف أهمل هذا العجب العجاب وأهرب؟ فقط أهرب كأي فسل جبان؟

لم أعرف كذلك كيف أهرب ولأي اتجاه، نحو المروج أم سفوح الجبال، وكيف أسبق خيول الحرب القادمة تلك، وأنا لا أعرف قيادة الخيل السريعة؟

هكذا وجدتني أفك قدمه التي التفت حولها سروج جواده، وأسحبه بكل قوتي، وأسرع هو بساق أصيبت بعرج خفيف، نحو فرس عدوه المتوقفة تضبح، فيندفع بخار منخريها كثيفاً في الأجواء الباردة، مرئيًا كدخان أبيض، واعتلاها بعد أن أزاح



خصمه من عليها، ثم أدار لجامها، ليتركني خلفه بخسّة، فصرخت به بنفس لغته الغريبة:

يا سيدي.. لقد ساعدتك من موت محقق.

استل القادمون سيوفهم، ووصلنا صياحهم جليًا، وهم يقتربون بسرعة مخيفة، والموقف كله عجائبي، بين لا مبالاتي بمصيري، بما أنه حلم، ولهفتي للمعرفة، بما أنني أعي. شعر الشاحب بأنني لا أستحق مصيري، فتوقف وهو يمط شفته بضيق، ثم عاد أدراجه إلي وهو يلكز الفرس في بطنها بقوة، ومن ثم قفزت خلفه، وقد سعدت بكوني رديفه، لا قتيله، واندفع بي نحو السفوح..

إذن فقد كنا في مطاردة بأرض العدو.. ولكن كيف ظهرت فيها بهذه العشوائية؟ حتى الأحلام لها منطقها الخاص، وإن لم تكن هناك بداية فعلى الأقل هناك معلومات، وحشو يفهم منه المغزى العام.. لماذا هذا الغموض الحاد؟

انطلق بي بسرعة كبيرة مخترقًا الأشجار القريبة، وكوكبة الفرسان في إثرنا، تنهب خيولها المرعبة الأرض نهبًا، وهي تطلق خوارًا كالثيران، وبدأ الهواء البارد يتسلل للطين الرطب الذي يغطي جلبابي، فأرتجف ويرتعش عنقي. ولكن فجأة توقف كل شئ!



كأنها صورة ثابتة، بألوان عتيقة.

والتفت لي رأس الشاحب ببطء، فكاد قلبي يتوقف عن نبضه.. عندما رأيت وجهًا غير الوجه، يحمل ملامح ذلك الدرويش الطويل، يبتسم في رقة ويقول بلهجة طيبة:

لقد نسيت يا (سراج).. لكنك ستتذكر.. فقط اتبع الأرنب الأسود.

ثم نظر أمامه، وسط الموقف المتجمد، ونظرت خلفي فشاهدت أول الفرسان الخمسة، وقد لمحنا، وملامحه بدوره متيبسة، وقد نزل عليه سهم اللّه كما نقول في (مصر)، على أن هذا التوقف المريب قد تحلحل في بطء، ثم بدأ الهواء يتزايد تدريجيا، حتى عادت الحركة السريعة لسابق عهدها، وأنا أهز رأسي بقوة، حتى أفيق مما رأيت، وقلت له في ثوران ارتباكي:

ماذا قلت؟!

صاح بتعجب:

لم أقل شيئا.



ثم نهَر الجواد كي يضاعف من سرعته، وهو يحاول الفرار بالسرعة فقط، ولكن خصومنا كانوا بمثل سرعتنا أو أسرع، ولم يكن هناك من أمل، كما أن البرد ازداد وطأة، فراح ارتجافي يتزايد، وتصطك أسناني بألم وخوف، وهو يستطرد وقد شعر بضعفي:

أمحموم أنت؟

ورأيته على يميننا.. أرنب بري مكتنز أسود اللون، لمحنا ففر مذعوراً.

فصرخت فيه وأنا أشير للأرنب:

من هنا.. من هنا، وراء الأرنب الأسود.

أي أرنب؟

لم يكن هناك وقت، فجذبت معصمه لليمين، فانجذب اللجام وعنق الجواد، لينطلق الجواد في اتجاه الأرنب، والشاحب يلعنني في حنق، واستدار الأرنب حول تبة صغيرة، لنرى وسط الخضرة الكثيفة للنباتات البرية مدخلاً مظلماً، صرخت فيه بلهفة:

هنا يا سيدي.



أوقف الجواد بسرعة وصعوبة، وترجلنا، ثم دخلنا معا، بينما واصل الفرسان طريقهم ليجدوا التبة فيقفزوا من فوقها، ويهبطوا على الناحية التي بها مدخل الكهف، مواصلين انطلاقهم خلف مسارنا المفترض وسط الأشجار والجبال، بعد أن فقدونا للحظات وجدنا فيها هذا المدخل المخفي.

تعجب الشاحب، وهو ينظر إلى ارتجافي الشديد، ثم قال:

لا يمكن أن يلاحظ مخلوق هذا الكهف.. هل أنت من منطقة متاخمة أيها الصعلوك؟

وما هذه البلاد يا سيدي؟

إذاً أنت أجنبي لا تعرف أين أنت.. لهذا كنت مختبئًا وأنقذتني مفاجأتك.

أنت أيضًا أنقذتني يا سيدي.. بماذا أناديك؟ وإلي أين ستتوجه؟

أنا (جان فون وينزل) سليل الفارس العظيم (إيرهارد فون وينزل) وحامل درع نبالته، وقد نويت العودة إلى وطني بعد ما جرى لي مع الأتراك، ونحن الآن في (بروسيا).. سنعبر جبال (الخام)، ثم نضلل مطاردينا في (هنجاريا)، حتى نصل للوطن.



ازداد ارتجافي واصطكاكي، حتى أن الرجل أشفق علي، وأطل في حذر من فتحة الكهف الطبيعي الصغير، فلم يجد الخطر، فانشرح صدره كثيراً، حتى أنه أحضر بنفسه بعض الحطب من أجلنا، وأشعل النار، وأنا أخبره باسمي.

كان جلبابي رثًا، صيفيًا، لا يمكنه مقاومة تلك الأجواء الباردة، فأنقذتني النيران من نزلة شعبية مؤكدة، وأعادت لي إحساسًا مخيفًا بأن ما أحياه واقعي.. حقيقي.. وليس مجرد حلم..

فسرت رعدة جليدية في عمودي الفقري، والجنون بعينه يتقافز في ثنايا مخي: هل جننت؟ كيف هذا؟ ما هذا الذي يحدث؟ وكيف وصلت لتلك البلاد؟ وأين تقع (بروسيا) هذه إن لم تكن قطرًا أوروبيًا؟

نظرت لملامح السيد (جان) الأوروبية بما لا يدع مجالاً للشك، وأنا أسأله بحذر:

هل نحن في أوروبة؟

نظر لي بدهشة، ثم ضحك فجأة:

أسئلتك غريبة لكنها مطمئنة.. هذا يعني أنك لست عثمانيًا.. وهذا مريح نوعًا بالنسبة لرجل كاد



يقتله العثمانيون، بعد أن كشفوا أمره.

إذن نحن في (تركيا)؟

لا ترغمني على تركك يا (سيراش).. أنا حتى لا أعرف نطق اسمك بشكل صحيح، ولا ينقصني تمتعك بغباء جغرافي لا يوصف.

أرجوك يا سيدي.. أتوسل إليك أن تخبرني.

أخبرك بماذا؟

أين نحن؟ وما سر هربك من أناس الحديد هؤلاء؟ لوجودي معك علاقة بالتأكيد، علاقة ستكشف لي سرًا مبهمًا للغاية.

يبدو أن المرتزقة قد أطاروا صوابك من شدة الرعب.. لكن لا بأس.. سنستغل فترة الراحة في هذه التسلية الباسمة. لقد سئمت حياتي وعلي العودة إلى المكتبة، بعيداً عن كل هذا الخطر، وهؤلاء الكفار، ولا بأس من ثرثرة عابثة أخيرة.. نحن في أوروبة الوسطى، نخترق ما يسميه البروسيون بـ (غابات بوهيميا)، ونسميه نحن التشيك بـ (غابات بافاريا)، أو باختصار جبال (شومافا)، التي تفصل الوطن عن (هنجاريا) و(بروسيا).. ولأنك مصاب بهلع غير مبرر، يكفي أن تعرف أنني نجوت من الموت،



لأنني أنا المطلوب رأسه. بصفتي جاسوساً قضى سنوات طويلة في استطلاع أمور العثمانيين، مدفوعًا برعب ملوك أوروبة كلها من الغزو الإسلامي.. فأنا الذي ينبغي أن أصاب بكل هذا الذعر، وأنت من ينبغي أن تهدئني لا العكس.

الغزو الإسلامي؟!

لقد أثار السيد (جان) رعبًا أكبر راح يخيم على روحي.

السؤال ليس إذاً أين أنا.. بل متى أنا؟!

سألته بأعين متسعة في ظلمة الكهف، وظلال النيران تتماوج على الموجودات:

في أي سنة نحن، وما هو هذا الوطن الذي تتوجه إليه؟

سألت بآخر نفس، يمكن لصوتي المبحوح الغارق في ذعره أن يحمله، على أمل التشبث بأهداب أي طرف خيط، يقودني للمعرفة اللعينة.. للفهم الذي يزداد ضيق أفقه بداخل عقلي الملتاع، المهتاج، لكن الإجابة كانت أكثر فداحة، وغموضًا، وصدمة:

هي سنة ١٤٧٣ حسب التقويم اليولياني، والوطن هو مملكة (بوهيميا).

****

الدرويش

ارتفعت وعوعة بعض ذئاب جبال الخام البعيدة، وهي تتصارع على فريسة ما، بينما عقلي مصاب بدوار كالهزيمة. كأسير مكبل بأغلال الخوف من المجهول، وسط قضبان زنزانة من الغموض، في قاع بئر من الحيرة.

كنا قد غادرنا كهفنا في طريقنا البعيد، بعد أن اكتشفنا فيه آثار مخالب غير محببة، وتفادى رفيقي الاتجاهات الممهدة، سالكًا المناطق الوعرة، لعلنا نفلت من مطاردينا نهائيًا. وبينما نستقر في حفرة صخرية طبيعية، كبيرة، تمنع رؤية النار من جميع الاتجاهات، قررنا أن تكون مكان مبيتنا لليلة الأولى. سألني السيد (جان) في ضيق:

أمقت الصامتين.. ما الذي جرى لك؟

أعرف شعور من فقد تسليته الوحيدة، وهي في حالته الاستماع لمخبول مسالم، قراجوز جديد.. ولكن الأمر كان خارج طاقتي لا ريب.. كيف أكون في زمن قديم وأنا ابن القرن التاسع عشر؟! أي حلم متقلب أحمق هذا؟!



لا يمكنك تصديق عبورك لأربعة قرون للوراء، بهذه البساطة، ولا حتى بطريقة معقدة.. لا يمكنك تصديق هذا على الإطلاق.

أخشى أن تكون من فتن الشيطان.. لكن ما باله يستهدفني بهذه القوة، وأنا بعد مجرد عابد شاب، ولست بفقيه أو عالم أو ولي صالح؟!

ثم تذكرت عبارة الدرويش أثناء المطاردة المحمومة : (لقد نسيت يا (سراج).. لكنك ستتذكر).. فما الذي نسيته ويشكل فارقًا ضخمًا كهذا بين العقل والجِنَّة؟ هل نسيت أنني قد قمت بتحضير الجان مثلا؟ وأن ما بي من تخبل هو تلبسهم ومسهم؟

ولكن منطق العفريت لن يكون معقداً.. لن يجرك لعالم آخر، ويسقيك الشك والجنون نقطة نقطة، باذلًا كل هذه المجهودات الضخمة؛ فمن أنا لصنع كل هذا الوهم خصيصًا من أجله؟

توقف السيد (جان) عن تقليب الحطب، فتأملته وقد قررت الكلام، حتى لا يتخلى عني على الأقل:

معذرة يا سيدي.. لكني في محنة شديدة، ولابد أن ..!



ولكنني لم أكمل أبداً، لأنه بدا كتمثال من الشمع، دون أن يكون ميتًا مثلًا.. لأن النار نفسها ظلت مضيئة لكن بلا تلوٍّ وتأجج.. كصورة. أهي خدعة أخرى؟ نهضت أحرك يدي أمام عينيه، إلا أنه لم يطرف، أدخلت يدي في النار، فلم تصب بسوء.. ولمحت الآخر جالسًا بطرف عيني، يقول:

لا تفكر في الجن والشياطين كثيرًا.. فهم يستجيبون أحيانًا.

شهقت بقوة، وأنا أسقط على مؤخرتي، وأتراجع زاحفًا عليها وعلى مرفقي محدقًا فيه، كالمحدق في (إبليس)، وقد بدا في جلسته البسيطة أمام النار، وقد انحسر جلبابه عن نعليه، وكأنه معنا منذ البداية في الوهدة الصخرية، وتناقض مشهده العادي ككل، والذي لا يثير الخوف في قلب أرق الأطفال، مع كل هذه الخضخضة التي تكاد تمزق قلبي؛ وهو يردف بهدوء، متظاهرًا بتدفئة كفيه على النار الجامدة:

تماسك يا (سراج).. الأمر لا يستحق كل هذا الهلع.

أجبرت شفتي المسكينة على الكف عن الارتجاف:

هل يمكن للمرء أن يحلم بهذه الطريقة؟



حسب تعريفك للحلم.

أرجوك.. بدون ألاعيب لغوية محطمة للأعصاب.

إن السيد (جان) هو حلقة الوصل كما أخبرتك.. ألا تذكر؟!

وهنا تموجت ملامحه، وكل ظلام الليل خلفه، والذكرى تتجسد أمامي كأوضح ما يكون.

كأني أرى نفسي هناك.. في مقابر بلدنا.

أراها من منظور علوي.

****

قال الدرويش موضحًا:

الحاج (ضاحي) يدّخر طوال العام، كي يشتري خروفاً أبيضَ جميلاً، يوزعه على زوار سيدي (الشاذلي) لوجه اللّه، في (حميثرة) شرق (أسوان)، وذلك يوم (عرفة) من كل عام.. لذا فهو مشهور في نواحي بلدنا بلقب (أبي خروف).

(آه.. هو درويش ثالث إذن).. قالها (سراج) في سره، ليبرر كلام الحاج. ومن ثم وقد تفهم، ابتسم للرجلين، واستأذن في الرحيل وهو يجذب خاله،



الذي حاول الثرثرة معهما من دون جدوى، بل وتباكى كالأطفال عندما أجبره (سراج) الأكثر فتوة منه، كي يبتعدا.

للحظات شعر (سراج) وكأن الدرويش يكلمه، ولكن مهلًا.. إنه يكلمه بالفعل.. ولكن غشاوة ما تحجب كيان (سراج)، يرى ما وراءها من أصوات وأضواء بصعوبة، باستثناء كلام الدرويش.. الذي كان أوضح ما يكون. الآن يتذكر بقوة. صوته كان النقاء مجسماً:

ما كان لي أن ألوذ بغير هدْي القطب، فكان ما يراه أحب إليّ من نفسي. كيف لا وهو صاحب الوقت، وخليفة اللّه في الأرض ؟ لكن لا يلزم الهدي إلا سر، فكان السر البوهيمي، وكان لي أنت، رفيق الرحلة، وكان معي أبو خروف، شيخ الكرامة، وكان طريقي لك خالك، لطيف بلدك، وسيكون لك جد (جان)، مساراً وسرَبا، وأيام شجرة النور.. شجرة (زيدة) الصغيرة.. وغيرها من النيّرات.

لا .. لا أفهم.

ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض، فكنز الرجل المتيبس، فحراس النار، فـ (زيدة) اليابسية، فأبنائها من سلالة النور، ثم ترتد لتفهم، وتعي أكثر. ستصل للناهب



الأول، ثم أبناء التنين، فـ (زيدة) اليابسية إليها تعود، ثم لديارك ترجع.

ثم إنه انتبه، ونسي، وقاد خاله (لطيف) مبتعداً.

ولكن جزءاً من عقله ظل محتفظًا بما حدث.

* * * * * * *

الآن تذكرت.. ولكن ما هذه المعاناة؟ كيف ينبغي أن أفهم وأعي مما تذكرت.. وأنا لا أفقه شيئاً منه رغم أنه كان باللغة العربية، لا الصينية !

قلت للدرويش في لهفة المتوسل:

أدركني يا درويش.. لقد نالت مني الخزعبلات حتماً.

لا بأس عليك.. فقط نفذ ما تذكرت.. لابد أنك تتذكر هذه المرة قول خالك: الآن تنام بعد هذا اليوم الطويل.. ثم تبدأ رحلتك. فلا تتأخر كثيراً عن رحلتك.

أهي كرامة ما ؟ نعم.. هي كذلك.. أعرف أن لأولياء اللّه كرامات لا حصر لها.. والكرامة ابنة المعجزة.. لكن أية كرامة هذه باللّه عليك؟



كان أبو خروف يملك كرامة الأعضاء، خاصة عضو اليد. هناك – في كتب ساداتنا – موهبة طي المكان، وتحتها جمهور كبير من الأولياء، لهم آثار مشهودة حد التواتر.. وطي الزمان، وهو تصنيف آخر، فيه خلق قليل لكن عظيم.. وعكس هذا الطي والاختصار، نشر الزمان، وهو عنوان نادر، وهبة استثنائية، يصعب على العقول تصورها، وعلى الأفهام استيعابها، لا يُعرف من حائزيها إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.. النشر أي إمهال الوقت وقتًا، وإنجاز الأمر الكثير في الزمن القليل.. ما تواجهه هو نشر النشر، أو التوقف لدرجة التراجع، وهي جائزة عظيمة، ومن ندرتها لا يندرج تحتها إلا اسم واحد فقط.. هو العبد للّه.. وبينما نتراجع سنتراجع، ولن ينقضي الإسار بدون اعتبار، فافهم.

يا إلهي.. لكن.. لكني لست من الأولياء، ولست حتى من السالكين.. فكيف تختصني الكرامة بهذا الأمر الجلل؟ ولو كان وراء هذا السر حكمة، فكيف وفي نفسي غضبي القديم؟

لماذا تشعر بالحرج؟ سألك أبو خروف إذا كنت مازلت غاضبًا من ربك، وتهربت، نصحك بالتغلب على الحزن لأنه يعلق هذا السخط، ولكنك لم تأبه.

كان هذا أكثر مما أتحمل.



لقد اخترق دواخل أعماقي بدون سابق إنذار.. كالمغتصب.

هذه الأفكار الدفينة كنفث الشيطان، لا تزول بسهولة، ولا ينبغي التفكير فيها مجدداً، وإلا كان كفري بواحاً.. لقد عراني الدرويش وكشف عورات نفسي..

بالطبع غضبت في طفولتي من موت أمي.. مقتلها بمعنى أدق، بعد استعلان الحقيقة على لسان الشريفة رحمها اللّه، ولكن الطفل يمكنه أن يسخط على خالقه، دون أن يفهم حتى معنى (الخالق) (الناطق).. ودون أن يحاسب على ما ينطق به به، وما يلفظه عنه عنه، حتى ولو كانت القدرة على الاعتراض على المشيئة بالمشيئة، والإرادة على نفي القدَر بالقدَر.

عادت نفسي تلومني: وهل في بقاء الحزن شئ غير العتاب المذموم، وعدم الرضا بالمكتوب؟

فاهتاجت كينونتي، وثرت في وجهه:

أنت لست اللّه فلا تحاسبني.. اعتبرني ملحداً معتوهاً واتركني، إن كان هذا ما سيوقفك.. اتركني.



وما الفارق؟ كيف سيوقفني هذا الاعتبار؟

ستدع عنك نصحي وإرشادي.. سترحم ضميري، بالصمت عن (قال اللّه وقال الرسول).

علوم الباطن لا علاقة لها بإيمانك من عدمه.. وما ستراه، سيجعلك من أهل الحب، أهل الذوق، سواء كنت مسلمًا أم مسيحيًا أم يهوديًا، أم ملحداً بلا دين.

تطلعت إليه في بهت..

الدرويش يتحداني ويدعوني.. يقسو على عقلي ويحنو على نفسي.. وروحي مشتتة بين المعتركين.

لقد انتخبك القطب الغوث شخصيًا.. الإنسان الكامل.

وما معنى الإنسان الكامل؟

ستعرف.

وبماذا كان اختياره لي؟

بحبك لأمك.



أحال ذكر (وردة) لباطني موجات من الألم والفقد، تكرس للحزن، وتوكلني من جديد لضعفي، ليد الزمن.. ولقدري مع الدرويش.

نكست نظري للنار الجامدة، والمرارة تحاصرني، والدمع يكاد يلتمع في مقلتي، ثم رفعت رأسي كبائس ضال، يتعلق بأهداب المآل:

هذا الكنز البوهيمي، كيف يمكن..!

بترت قولي في دهش، عندما وجدتني أنظر في عيني السيد (جان)، وقد استعادتا حيويتيهما، وتحركت النيران، وعاد الكون يدور، وتلتمع نجومه، وتصرّ مجراته، ومن بعيد يعدو وسط الأشجار المظلمة وشق طويل الأذنين، يبحث عن قارض ليلي يتغذى عليه:

هل تبحث عن كنز؟

بادرني، بينما تلفتت عيناي حول الوهدة، فلم أجد أثرًا للدرويش، وكأنها كانت إغفاءة أو كان سرابًا آخرًا.. إنها حدود منهارة بين الواقع والمخايلة:

ليس كنزًا بالمعنى المادي يا سيدي.. بل لعله معنى رمزي.. شجرة نور كما أخبرني أستاذي.. أو

شئ يتعلق بخراف بيضاء، لست أدري بالضبط.. أو يقارب الخراف البيض، و..!

هكذا أجبته بحيرة مرتبكة، ولكن قاطعتني شهقته، ثم إنه استل سيفه بصوت معدني مخيف، وهو يصوبه نحوي منذرًا:

أفصح عن نفسك أيها الساحر.. مرة ترشدنا لكهف يستحيل رؤيته، والآن تقرأ عقلي.. فلتقطع ذراعي إن لم تكن ساحرًا طالما لست عثمانيًا، من أين لك بمعرفة دولة (الخراف البيض)؟!

وكان وقع المفاجأة غريبًا.

* * * * * * *

بيبليوتيكا كورفينيانا

كانت توسلاتي حقيقية، وطفرت مني دموع الرجاء، لتجعله يعيد سيفه إلى قرابه في تلك الليلة الليلاء، وبعد لأي، شرح لي بضيق:

لا يعرف الصعلوك العادي دولة (الخراف البيض)، صدقني هذا مريب للغاية، لذا فقد كان شكي أقوى من رغبتي المسالمة.. إن دحر العثمانيين لزعيم الخراف هو ما جعلني أقرر العودة للمكتبة.



رباه.. لقد بدأ الرابط في التكشف..

ببطء شديد..

الحاج (ضاحي) لم يذكر الخراف البيض للإشارة فقط لخرافه، التي يقدمها لزوار ضريح (الشاذلي) كل عام. القوم ليسوا بهذه السطحية على الإطلاق، لهذا يجد العامة فيهم كل مسببات الجنون، ويسمونها (دروشة)، هذا تفكر الناس اليوم في زمننا الحديث، وقد كانوا قديماً يجلونهم ويعظمونهم، وينشئون التكايا للفقراء.. وهم – العامة – معذورون، إذ كيف يلتقطون الإشارة اللطيفة، وهم في أيامهم العادية يكدحون بلا توقف.. كيف يفهمون اللطائف والرقائق، وعقولهم غير مؤهلة لتفسير الدقائق، ولا يجدون من وقتهم لها دقائق..

إذاً هذه هي البداية.. كما كانت بداية إشارة الدرويش : (ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض). لكن ما قصة المكتبة:

لقد ذكرت أنك ستعود إلى المكتبة؟ أية مكتبة؟

المكتبة الكبرى.



هل هي هناك في (بوهيميا)؟

بدأت أحس بمعاناتك أيها الصعلوك المطين ! أنت ضائع بالفعل.. لا أحد في هذه البلاد يجهل (بيبليوتيكا كورفينيانا) أو المكتبة الكورفينوسية، أكبر مكتبة في أوروبة قاطبة للكتب العلمية والسجلات التاريخية وشروحات الفلسفة، والتي يشرف عليها (ماتياس كورفينوس) شخصياً، تحت رايته ووسط نفوذ ملكه بـ (هنجاريا).

رأى نظرة التساؤل التي لم أعد أملك سواها تطل من عينيّ، فقال بضجر ساخر، قبل أن أتفوه بحرف:

انتظر.. سأجيبك يا (سيراش) المغفل وليرحمني الرب، وتحل على صبري كل بركات الكنيسة البوهيمية.. إن (ماتياس كورفينوس) – أو (ماتياس الأول) كما يلقب في (هنجاريا) – كما أنه ملك لـ (هنجاريا) و(كرواتيا)، فهو أيضاً ملك بحكم الأمر الواقع لأراضي التاج البوهيمي، وذلك بعد احتلاله لـ (مورافيا) و(سيليزيا) و(لوسيتيا)، شرق (بوهيميا)، لكننا الآن على وشك العودة للوطن، بينما تشتعل أوار الحرب البوهيمية منذ ست سنوات، لأن أراضي التاج البوهيمي ينازعها ملك آخر، هو (فلاديسلاف الثاني)، والمستأثر بقلب الكعكة.. (بوهيميا) نفسها، وعاصمتها (براها)، مقر حكم الملوك البوهيميين.. هل تستوعب؟

لا أعرف شيئًا عن هذه البلاد. ما أعرفه أن الدرويش.. أعني أستاذي الروحي، كان قد كلمني عن الخراف البيض.. كان يتحدث كما لو أنه يقصد خرافه الحقيقية، ولكني عرفت منك للتو أنها دولة.. وأنا أجهل كل شئ عن هذه الدولة، لكن لا يهمني في الوقت نفسه معرفة شعبها أو تاريخها، أو حتى موقعها. جل اهتمامي ينصب على العلاقة.. لماذا؟

لماذا ماذا؟

لماذا أنت.. ولماذا الخراف البيض؟

هذا ما سنناقشه في الصباح، وإلا بدأنا يومنا بدون قدر كاف من النوم، المرتزقة يطاردونني منذ أسبوع كامل، دون أن أفلح في تضليلهم عن آثاري.. اخلد للراحة الآن أيها الغر الساذج، ولنأمل أن تحجب هذه الوهدة المنخفضة رائحتنا عن ذئاب (شومافا).

ونهض ينثر حولنا بقية الأغصان الجافة الصغيرة، كي تتحطم إذا ما اقترب منا أي مخلوق، فنأخذ حذرنا في الوقت المناسب، واعتمدت أنا على الحصان اليقظ، الذي لا ينام بسهولة، وتستفزه أقل التحركات، وعلى الحطب المشتعل بنار الإنذار، لأي مفترس غدار.



لم أشعر بتوغل الليل، إذ كان إنهاك المطاردة والسفر والبرد، أكبر من قدرتي على التفكر والقلق، فسقط وعيي في لجة عذبة من نوم عميق..

ربما أحتوي على أمل ضعيف، بأن أستيقظ فأجد نفسي في بلدتي السوهاجية، وربما أحتوي على يأس من النجاة، ويأس من المعرفة المشبعة.. لا أعرف، الميزان لم يكن دقيقاً لترجيح كفة أحد الشعورين.

لكن صباح اليوم الثاني، حمل لي رعباً من طراز آخر.

رعب حيواني.

لقد شعرت بأنفاسه الحارة.

ظننت للوهلة الأولى أنه الحصان، ولكن الضحكة الخافتة أجبرتني على فتح مخي، وكنس بقايا الغياب.

الضحكة الماعزية !

نعم، أنت لم تخطئ قراءة الوصف الأقرب لما سمعت، وارتجف له بدني، وجمد له دمي جملة واحدة. فتحت عيني ببطء ورعب، لتطالعني عيون كبش أو خروف أسود الوجه، بني الظهر.



عيون بارزة، خاملة كعيون الجثث.

ورأس يخرج منه قرنان هائلان، ملتفان بشكل لولبي، وأكبر من قرون الكباش العادية بثلاثة أضعاف على الأقل، وأكبر من جمجمته هو نفسه بأربع مرات.

العيون قريبة، وإغماءة الخوف – أو الموت هلعًا – وشيكة.. ولكني استجمعت ما تبقى من شجاعتي الآدمية.. هو مجرد حيوان.. لابد أن أخدع عقلي كي ينجدني جسدي. إن البشر أسمى من البهائم. رفعت رأسي، فتراجعت البهيمة قليلاً بحوافرها المشقوقة المنفرجة. جلست قبالته وهو مايزال يحدق في وجهي ببرود متهكم، فقلت بأسنان تتخبط:

هل.. هل أنت الشيطان؟

أحنى رأسه لأسفل كأنه يوافق، فارتفع لهاثي المرتعب، وبدأت في الزحف والتراجع هربًا. لحظة الصفر قادمة.. لحظة الموت فزعًا.. دانية بثقة، كدبيب خيول الحرب. زحفت بجنون، عندما انطلقت صرخة الجاسوس البوهيمي قوية، لطرد الحيوان، فتحفز الكبش بحدة، ثم استدار وفر هاربًا بسرعة رهيبة، والرجل ينظر لصدري الذي يعلو ويهبط بسرعات قياسية:

رفقًا بنفسك.. إنه مجرد أرويّة.. خروف بريّ.

لقد.. لقد أجابني بأنه الشيطان يا سيد (جان).. كان يومئ بوضوح.

ربما يا رجل.. ولكني لم أر سوى انحناءة الهجوم الشهيرة لتلك الأكباش الذكور، لقد كان فقط يومئ استعداداً لنطحك نطحة مبرحة، عقابًا لنا على اجتياز مناطقه.

دعاني لتمالك نفسي، والاستعداد لمواصلة مسيرنا، فتماسكت بمجهود خرافي، مرير، ثم عاد تفكيري يرغمني على الربط.. لماذا ظهر هذا الأرويّة ذو القرون الدائرية القوية؟ هل يذكرني بحديث الخراف البيضاء؟ :

إذاً ما قصة الخراف البيض يا سيد (جان)؟

أنت مصر إذاً؟

أنا بلا حول ولا قوة.. لا أعرف شيئًا، ولست مسلحًا مثلك، ومدين لك بانقاذي.. لذا فدعنا نتبادل كلمة شرف.. لنكن أصدقاء، وأعاهدك ألا أفشي شيئًا مما ستخبرني به.



بدا غير مقتنع، ولكنه نظر لهيئتي المزرية من فوق كتفه، والحصان يتمايل بنا وسط دروب جبال الخام، فشعرت بأنه سيتخفف من عبء ما:

كنت ترجوني أن أقبلك كخادم، والآن تسمو لدرجة الصداقة والندية.. يا لك من طموح أيها المسلم الضال.

إذاً.. فأنت تعرف أنني مسلم؟ أعني كيف خمنت؟

الآن فقط تأكدت وقد أوقعتك بلسانك، لكن لا تخش شيئاً.. نحن نختلف عن بقية أوروبة، فنفرق بين المسلم المقاتل والمسلم البائس البريء، وهذه الحرية الدينية لن تجدها لدى أي مواطن آخر.. فقط لدى البوهيميين.. لقد دفعنا الثمن فادحًا في الحروب الهوسيتية، حتى نلنا هذه الحرية. لقد حاربنا البابا نفسه.. الحبر الأعظم.. كانت أيامًا عجيبة عصيبة في زمن أبي، منذ أربعة عقود. كما أنني خبرت الكثير عن المسلمين والعثمانيين كما ألمحت لك، ولا تفوتني طبيعة أسمائهم.. مثل (سيراج) و(موحمد) و(سوليمان).

كان ينطقها ملتوية بالتشيكية، ولكنه كان على حق بالتأكيد.. لست خبيرًا بالتاريخ، ولكن هذا الزمن الذي أعقب فتح (القسطنطينية)، كان يموج بالتعصب الديني.. والحروب المسماة بالصليبية..



أعتقد أن العثمانيين بالنسبة لأوروبة، كانوا كالغزاة المغول قبلهم.. وفي أجواء كهذه، لا يقتلك فيها أحد الجواسيس لمجرد أنك مسلم، لا يمكن أن تدل روايته معها إلا على الصدق. (بوهيميا).. هذه المملكة المجهولة بالنسبة لي، كانت فيما يبدو منارة التسامح في هذه الأزمنة المظلمة.

لكن القلق ظل ملازمًا لي، فهذه الحرب الداخلية، قد تعوق رحلتنا من دون شك:

حيا اللّه روحكم السامية.. وأعانني على الإفادة منها.

إذا فأنت تريدني أن أخبرك بسر عائلتي؟

إن كان يتعلق بالخراف البيض، ويساعدني على فهم سر حياتي أنا.. فبالتأكيد.

الحكاية باختصار، أن أحد خلفاء (تيمور لنك) وهو (حسن الطويل)، سلطان إمارة (الخراف البيض)، المنتمية لقبائل الترك الأوغوز، قد هُزم أواخر صيف هذا العام على يد (محمد خان الثاني)، السلطان العثماني، وسحقت دولته؛ وعندما أدرك نهايته، أفشى (حسن الطويل) بسر يقع بأعماق (تِبريز)، المدينة الفارسية، ومقر ملك دولته السُنّية. وعندما وصلني هذا السر شدهت، وتغيرت نفسي،



وتوقفت كل نشاطاتي الجاسوسية على الرغم مني.. لأن هذا السر يتعلق بجدي الأعظم.

مررنا من على جروف رائعة، مكسوة بالأشجار والخضرة، بينما تتألق السماء الزرقاء بشمس معتدلة، وسحب كندف القطن، تسقط زخات من المطر الخريفي الخفيف بين الحين والآخر، فوق جبال (شومافا) الخلابة، ذات القمم الجليدية التي لم أر مثلها في حياتي:

جدك الفارس (إيرهارد فون وينزل).

بدأت ذاكرتك تستعيد رونقها.. كان جدي يعالج من مرضه، في ينابيع المياه المعدنية الحارة التي تشتهر بها (بوهيميا)، لذا فعندما زاره الملاك، وأخبره أنه سيغطس في ينابيع أخرى في أقصى الشرق، وجل؛ وقرر التوقف عن معاركه لطرد الجرمانيين، وهو نشاط السلافيين المفضل في زمنه بالقرن الميلادي السابع، ثم التوجه للحج، ابتهاجًا واستبشارًا بالرؤيا.. التي استفاضت في تحفيظه نسب الصالحين عبر الزمان.

الحج؟ أتعني بالمفهوم الديني؟

نعم.. نحن نحج لـ (بيت المقدس).. كانت في تلك الآونة عام ٦١٣م تسمى (إيلياء)، ومع وصوله إليها



بحرًا في العام التالي، تسبب الغزو الفارسي في أسره، ونقله حتى معسكر كبير، غرب الينابيع الحارة التي في شمال إمبراطورية (كسرى الثاني).. وهو الذي أطلق على السهل المجاور للمعسكر اسم (تبلتز)، وهي لفظة جرمانية تعني في (بوهيميا) الينابيع الحارة، فتحور الاسم مع مرور القرون إلى (تِبريز).. جدي هو من أسماها بهذا ولي ولعائلتي الفخر.

جد أمين المكتبة..

رؤيا..

نسب الصالحين..

بدأ قلبي يخفق في بشر وقد غزته الآمال، وعقلي يدرك أنني أقترب من شئ ملموس:

ومم كان يعالج جدك الأكبر؟!

يقول سجل الأسرة إنه داء تيبس المفاصل.

(ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض، فكنز الرجل المتيبس).

اللهفة.



أنفاس انتصار ما.

الرجل المتيبس هو (إيرهارد فون وينزل)، بشحمه ولحمه ومفاصله..

سألته بمزيد من الحماسة:

وهل يمكننا عبر المكتبة الكبرى، أن نحيط بوقائع الغزو الفارسي، وما يمكن أن يكون قد تعرض له جدك الأول؟!

إنها المكتبة الكبرى.. إن لم تجد فيها هذه المعلومة، فلن تجدها في أي مكان آخر في العالم.

وكان طريق الحكمة قد بدأ للتو.

****

قطعنا مسافات طويلات فوق حدود الأراضي البوهيمية الجنوبية، التي تفصلها عن (أوستيريا)، في اتجاه (هنجاريا)، ولمدة ثلاث ليال تالية، لم يظهر الدرويش، أو تشملني أية أحوال غريبة، أو تهاجمنا دواب البريّة، فعادت إليّ نفسي شيئًا فشيئا؛ وعثرت على مِسح ثقيل من مسوح الرهبان، بأحد الأديرة التي مررنا بها، أنقذني من البرد الذي كاد يهلكني، وخفف آلامي كثيرًا. عدت أستأنف ذكر اللّه



على مسبحتي، فشملتني السكينة بعد مفاجآت ورعب اليوم الأول.

كنا ننام في بعض القرى التي هجرها أهلها بسبب الحرب البوهيمية، وقد استبدلنا الكهوف والآجام، بالأكواخ المفروشة بالقش، فبدت بالنسبة لي على حقارتها، وكأنني في الجنة، وحمدت اللّه كثيراً على هذه الأعشاش، وعلى نعمة الرضا بالقليل، وعلى نعمة الحمد نفسها..

لكن هل هو ناقم عليّ؟

هل سينتقم مني بشئ لا يخطر على بالي؟ لم أتوقف عن الشك بأن ما أمر به أضغاث أحلام، رغم التفاصيل والآلام، وأنه من عمل الشيطان، وأن عمل الشيطان قد يكون نوعاً من غضب اللّه على جرأتي. وعندما ذكرت الشيطان مجدداً، وقع هذا الأمر المخيف، الذي لم أكن أتصور شهوده في عمري قط.

ولكن قبل أن أحكي هذا الأمر المخيف، دعني أشرح كيف احتفظت ذاكرتي بتفاصيل تلك الأيام. فقد أطلقت على الليالي الثلاث عناوين، للمحاورات البارزة التي تبادلتها مع البوهيمي، تثبيتًا لها في ذاكرتي؛ ففي اليوم الثاني واستغلالاً للأمان الذي شملنا، دارت الأحاديث حول مستقبل الدنيا في

زماني، وكيف أن تباشير التقدم التي تلوح هنا وهناك في القارة العجوز، ستثمر ثمارًا يانعة أكيدة فيما بعد، فكان (يوم المستقبل)، وذهل هو مرارًا من مجرد فكرة أنني من عصر لم يأت بعد، كأنها محطة قطار موجودة هنالك، لكن وقتها لم يأتِ حتى الآن.

اليوم الثالث كان اسمه (يوم محمد الفاتح)، وفيه شرح لي ظروف الدولة العثمانية القوية، وكيف أسقطت عاصمة الرومانيين في الشرق، بينما لم يكافحوا هم المسلمين المستوطنين منذ عشرات السنين في الغرب الأندلسي، ككماشة ستطبق رويداً رويداً على (روما) المقدسة، ويومًا ما على أوروبة الوسطى.

(يوم قايتباي) كان اليوم الرابع في ترحالنا وسفرنا الطويل، وفيه سألته بطبيعة الحال عن (مصر). وكأنها سُنة تلقائية، كان حديث الملوك أقصر الطرق لوصف الأحوال، وعرفت منه أن صاحب (مصر) الآن هو الملك الشركسي (قايتباي أبو النصر، سيف الدين)، سلطان الديار المصرية الذي تخشاه الامبراطورية العثمانية بأكملها، وتحلم يومًا بانتزاع أرض العرب والحرمين الشريفين من قبضته.. وشملتني ارتجافة خفيفة، وأنا أتخيلني في زمن المماليك البرجية!



في اليوم الخامس عبرنا واديًا قديمًا، يؤدي إلى حيث المدنية، والحضارة، وحيث سندخل المكتبة الكبرى، ولكننا كنا مازلنا بعيديْن عن العمران، في مناطق مقفرة كئيبة، غادرها جمال الغدران والمروج البوهيمية، وحلت محلها الصخور الهنجارية السمراء المتجهمة، والأشجار اليابسة غير المورقة، وانتشرت بها الأفاعي وبنات آوى؛ وساعد على رمادية الصورة تزايد الغمام، حتى أن النهار كان ضعيف الإضاءة، باهت الإنارة. وإذا بنا نرى القافلة.

الأمر يدعو إلى التفاؤل بالتأكيد. قافلة أي زاد وماء وصحبة، والسيد (جان) معه المال والخبرة، ولكن نفس هذه الخبرة جعلته يتشاءم، فابتدرته:

ما بالك تنفر من هؤلاء؟

ثلة من الفقراء هم، معظمهم من النساء والشيوخ والأطفال، وقد كانوا في ترحال أبدي بسبب الحرب، التي أوهنتهم، وأورثتهم البؤس والكساح وشتى الأمراض، ولكن طيبتهم لا مبرر للخوف منها.. وعلى الرغم من ذلك أجابني بقلق متصاعد:

ليس منهم، بل ممن خلفهم.. في ظروف الحرب ينتشر النهب وقطع الطرق، وخروج أهل القرى

بدوابهم وما خف وزنه وغلا ثمنه، يغري العصابات بتتبعهم.

ثم أشار لتل جاءوا من ناحيته، وقال:

إننا ننجو بالاستطلاع.. هكذا عشت حياتي وسط الأخطار. سأخف إلى تلكم التلة أستكشف ما وراءها، وأنت انتظرني هنا، حتى تزداد سرعة جوادي.

نظرت لعينيه في شك، فابتسم بصدق من سيرجع:

سنطالع في المكتبة سويًا يا (سيراش).. أنا أيضًا شغوف بمعرفة سر أستاذك هذا، فلن أودعك حاليًا.

وانطلق بالجواد عكس اتجاه القافلة، التي لوت أعناقها كلها تتأمل دروعه، كما لو أنهم نادرًا ما يبصرون مسافرًا ثريًا، أو من أصول وجيهة، ثم مروا بي كأني شجرة عجفاء، وقد بدا على مسحي الفقير، أنه يذكرهم بتعاستهم، وعوزهم، فلم يأبهوا لي، وهم يسيرون جماعات وزرافات، في صف واحد طويل، امتد لثلاثمائة متر أو يزيد. رجل واحد شذ عن سطرهم المنهك، واقترب مني بملابسه التي لا تختلف عنهم، في رثاثة سراويلها، وغطاء الرأس القديم، وعندما تبينت ملامحه صرخت:



أنت؟!

لم أدر لماذا خيل إليّ أن ظهوره العادي، بدون الجلباب الصعيدي الثقيل، والعمامة البيضاء، سيكون من المستحيلات الأربعة، ووسط دهشة المارين من كلمتي التي نطقتها تلقائيًا بالعربية، تبادل الدرويش معي الحديث بتشيكية خافتة، أثارت تعجبي:

هو أنا.. كيف أحوالك؟!

لماذا غبت ثلاثة أيام دون ظهور؟!

كيف أغيب وأنت هنا.. لو غبت عنك لعدت أنت لبلدتك وحاضرك.. هو فقط ذكر اللّه.

لثلاثة أيام كاملة؟

بل مدى الحياة إن قدرت.. لو نسيته ما نسيني، لكن ما استحققت أن أعيش على أرضه، أتنقل بين تضاريسها المكانية والوقتية.

لقد اقتربت من الكنز البوهيمي.

هل ستحاول معرفة ما جرى لجد أمين المكتبة، عبر الكتب فحسب؟



إنها كتب المكتبة الكبرى.. أكبر مكتبات العصر.

لو شاهدت الأحرف إذن، فما عليك إلا لزوم الباء.. حرف الباء هو النجاة.

هل عدنا للكلام المرمز؟

وهل مازلت تعتقد أنه مرمز؟

صدقت.. الخراف البيض أصبحت دولة.. ربما الباء الحرف الأول من كلمة حاسمة إذا؟

أو هو بذاته.. الحرف فقط.

كنا نسير ببطء بجوار القافلة، كي لا يشكوا في تخلفنا، وتبدأ الأسئلة الفضولية، وربما العرقلة والإعاقة، عندما بدأ ذيل القافلة في التفرق فجأة، وارتفع الصياح والصراخ تدريجياً، وعندما وصلنا الهرج والمرج، بدأ الناس في العدو كأنما ينجون بحياتهم من جهنم نفسها، وعاصفة ترابية تقترب متدحرجة من حول التلة، تخفي صانعها فلا نعرف فحواها، وارتفع صراخ إحدى النساء بكلمة واضحة:

اهربوا.. الوَندال.. الوَندال.

لكن الدرويش قبض على معصمي، فتسمرت، وتفرق البؤساء من حولنا بغير هدى، وعلى



وجوههم أكبر آيات الرعب. كان هذا هو الأمر المخيف الذي سبق وذكرته. انقشع الغبار عن عصابة من الأشاوس، شاهري السيوف، كانوا يهوون بها على المتأخرين من القرويين، أو من يحاولون مقاومتهم، فيمزقون أعناقهم وصدورهم بوحشية، ويستولون على أكياس طعامهم الهزيل ونقودهم القليلة، فانفعلت وأنا أصيح بالدرويش:

افعل شيئًا.

مثل ماذا؟!

أنت صاحب كرامات، اقتلهم أو جمدهم، أو انقلهم عصرًا آخرًا.. أي شئ.

انقلبت سحنته فجأة كأنني تجاوزت كل حد، وأمرته بالفسوق، وصرخ ليتغلب صوته على صرخات النسوة الممزقات، والأطفال اليتامى:

هل تظنني أستأنس بهذا الأمر كله؟ أفرح بالكرامة؟

أصابتني دهشة عميقة..

الغريب أنني مازلت قادرًا على الدهشة بعدما رأيت..

كيف يعقل أنه لا يحب ما هو عليه؟ لو كانت الكرامة لي أنا لفرحت بها، وهمت بها حبًا وسعادة وفخرًا.. هل لهذا علاقة بكونه رجلاً أحمقَ غبياً، أم أن لهذا بعداً آخرَ لا أفهمه. أكمل:

إن الفخر بالكرامة مكافئ لعبادة الأصنام.

طاش فهمي من فرط الذهول، وتشتت بصري للحظات بالمذبحة التي يكيلها قطاع الطرق، للقرويين الفارين من أتون الحرب البوهيمية، لتلتقمهم أُتُن النهب والسلب، فتضاربت أفكاري كلها، ثم عدت أهتف به بغضب، وكأن محاورتنا وسط هذه المجزرة الدموية شئ عادي تقليدي:

لماذا باللّه عليك؟ أليست موهبة من اللّه؟ هل أنت معتوه؟

هي مغايرة للّه، وكل فرح بشئ غيره، فرح بغير الحق، والفرح بغير الحق حجاب عن الحق، والمحجوب عن الحق كيف يليق به السرور والسعادة والفرح؟

ظننت أنها تأييد من اللّه، إثبات لولاية الولي، وفوزه.

– كل ولي حقيقي، لا يؤمن بكونه ولياً من أولياء اللّه، حتى لو خرقت له العادة، وأمسك النجوم بأصابعه، ثم دسها في جيب صدره.. فما أدراه أنها



ليست استدراجًا[٢]، أو مكرًا[٣]، أو كيدًا[٤]، أو إملاءً[٥]، أو إهلاكًا[٦]؟! (إبليس) خارق للعادة، و(بلعام) خارق للعادة، لكن الأول أصبح من الكافرين، والثاني كالكلب.

قفل (جان فون وينزل) عائدًا في تلك اللحظة، بعد أن غطاه دم من قتلهم من قطاع الطرق، وهو يصرخ بي:

تراجع يا (سيراش).. اهرب.

واقتربت منا طغمة من العمالقة، ينوون بنا شرًا، لولا أن سمعنا هدة عظيمة، فالتفتنا بعنف، لنرى ما ذهل له جميعنا..

القرويون توقفوا عن الصراخ والفرار. السيد (جان) جحظت عيناه وقد استغرق في الدهش. أنا انفغر فمي غير مصدق لما يجري.

المهاجمون توقفوا عن حصد غنائمهم.

حتى الدرويش.. تجمد في صرامة، وهو يحدق فيما يراه بنوع من الاستهجان الغريب.

وساد الصمت.



وكل الأبصار متعلقة بهذه الغرفة العجيبة، كما لو أنهم يطالعون إلهًا وثنيًا قديمًا.

غرفة زجاجية عجائبية، مضاءة بمصابيح طولية، لكنها لم تكن مصابيح من شموع، بل من نور أبيض غريب، مشع، وكل جدران الغرفة وسقفها من هذا الزجاج المتين، الذي لم يتأثر على الإطلاق بسقوط الغرفة، والتي بدت وكأنما قد نبتت من العدم، وسقطت على قاعدتها الصخرية العالية، شديدة القوة، وقد اصطبغت بلون رمادي غريب، وكأنها ليست صخورًا طبيعية..

لكن المصيبة كانت فيما يكمن بداخل الغرفة، وليس في الغرفة نفسها أو ظهورها المباغت كشيطان مريد، ولو أنه أغرب ظهور في العالم..

كانت في الغرفة ثلاث نساء عاريات. تمامًا.

تأملهن الجميع بانبهار مذهول، حتى نساء القرية البائسات نسين بؤسهن، وهن يتأملن حسن نسوة الغرفة الزجاجية، ويتحسسن شعورهن المغبرة الجافة، في مقارنة ظالمة مع شعور الثلاث المنسدلة، المبهرة في ألوانها المتعددة، بين أسود وأشقر وأحمر..



كان الموقف أكبر من كل اعتقاد، خارج الواقع، ولكن حيائي الطبيعي أجبرني على غض بصري، والنظر في عيني الدرويش وحدهما، مفكرًا في أن صدمة السيد (جان) لابد وأنها مشابهة لصدمتي، لكن الدرويش قال شارداً:

في هذه الأزمان، كانت النساء محجبات بالكامل تقريبًا، في التزام تام بالمسيحية المحافظة، أو لاتقاء نزوات الرجال، ولكن بالنسبة لنا أهل الحب، فكل هذا العالم خيال.

خيال؟!

خيال في خيال.. مجرد ظل. انظر يا (سراج).

اندهشت من جديد، ولكن الضربة الرنانة القوية أجبرتني على الالتفات. كان زعيم العصابة الجريئة أشدهم فجوراً، لذا فقد حاول الوصول للنسوة دون أن يجد منفذاً معتاداً، وقد خلبن لبه، فالتقط مطرقة ضخمة، وراح يهشم بها أحد الجدران، فاقترب مني السيد (جان) في وجل:

(سيراش).. هيا نبتعد.

هل ترى ما أراه؟



كلنا يفعل.. ولكنك منشغل بالحديث لهذا القروي الجاهل، وتتناسى مهمتنا.

يا إلهي.. إذاً فأنت ترى الدرويش أيضًا؟

هل هذا هو أستاذك؟

ولكني لم أتمكن من إجابته، فالزعيم نجح في استنفار قوته الجبارة، وحطم الجدار الزجاجي السميك في ضربته الثالثة، واقتحمه بجسارة غير مسبوقة، ثم.. ثم وقع المحظور.

هؤلاء المغتصبون لن يجدوا حرجًا في استغلال ثلاث نسوة إضافيات، خاصة وقد تبدين في كامل أبهتهن وعريهن، كدعوة مفتوحة واعدة بالراحة المغدقة والنشوة المغرقة، حتى ولو ظهرن من العدم، حتى ولو جرى الوقاع على الملأ..

الشهوة عمياء خرساء.

وبينما تصبغ الشمس الغاربة السماء والغيوم بالبرتقالي الناري، وينعكس هذا بنور أحمر ثقيل على الوادي كله، حاول بعض رجاله مشاركته، فطوح بمطرقته بعنف مبالغ فيه، ليحطم ربع جمجمة أول المحاولين، فتناثرت عشرات الأضراس في الهواء، وهو يسد فتحة الغرفة بجسده العملاق



في تحدٍ واضح، ليتوقف الباقون رغم غلمتهم الشديدة، وهم يحنون رؤوسهم كضباع متربصة، خسيسة؛ وانتخب هو أعرض الحسناوات أفخاذاً، وأنهدهن، وأجملهن، وأقواهن، وهي الشقراء؛ ودفعها في ركن الغرفة، فاصطدمت بالجدار بقوة مؤلمة لأي مخلوق طبيعي، ولكنها احتملتها بغنج مثير، فتبادل معها الزعيم نظرة شهوانية، وضحك بوحشية وهو يلقي بالأخريينْ للرجال، فانقضوا عليهما خارج الغرفة كالسباع، وبدأ هو مباشرة في إسقاط سرواله، ومواقعتها في الغرفة الزجاجية.. أمام عينيّ المذهولتين.

صرخ فيّ (جان) شديد الانتماء للكنيسة البوهيمية:

هيا يا رجل بحق يسوع.. أسرع.

بينما هبط الدرويش على ركبتيه، وهو يمد ذراعيه أمامه نحو المشهد الفاسق، كأنه كاهن يؤدي صلاة التوبة:

انظر يا (سراج).

والسيد (جان) يجذبني، وصراخ المتعة المغري يدوي من بين شفتي العاهرة الفاتنة، بينما العملاق المتوحش يرهز بقوة، ويطلق نخيراً غليظاً، في (يوم الغرفة الزجاجية):



هيا يا (سيراش).

والدرويش يصرعني بكلماته، بينما أبتعد، ويشير إلى الشيطانة الشقراء التي أغوت الجميع:

انظر إلى جسدها العاري.. إنه يذكر اللّه.. يسبحه.. حتى الأصنام تذكر اللّه.. وتسبحه.. ولكنكم لا تفقهون.

ارتج عليّ، فحاولت سد عينيّ وأذنيّ، وأنا أعدو خلف (جان) نحو جوادنا، ثم انطلقنا به بعيداً عن فسق الغروب.

****

ثريات هائلة من الشموع. صفوف وصفوف من الكتب والمراجع والوثائق. كلام القراء والباحثين وأفكارهم في الهواء. ثم وفي الأسفل رأسان. وتحت الرأسين مرجع غزو (إيلياء). وأحد الرأسين يقول بهمس يلتزم به كل زوار المكتبة العظيمة:

ها هو.

نظرت شارداً للصفحة المكتوبة باللاتينية.. حتى اللاتينية صرت عالماً بها.. ترى كيف حال خالي (لطيف) و (فكرية).. هل دخل (صلاح) مدرسة



الزراعة، وعثر (رشاد) على أبي الهارب.. هل غفر اللّه لي اعتراضي وكفري في طفولتي.. لقد قمت بسب الذات الإلهية أمام الملأ المذعور، وكان ما قمت به مرعبًا حتى لي أنا نفسي.. وعندما راحت السكرة لامتني الفكرة، وأنّبتني الحقيقة، وشقّ عليّ إيماني.. هل حفظي للقرآن في الكتّاب سيشفع لي، أم أنها مداهنة أخرى ورياء.. هل يعفو اللّه عن جنوننا ونزقنا.. هل يرى إشفاقنا منه، ومراقبتنا له..

رحنا نطرد الذكرى الدنيئة القريبة، وهولها المشين الذي وقع على الملأ، بقراءة المكتوب عن تلك الفترة، وعن أعيان أوروبة وفرسانها الذين كانوا يحجون في سلام، بعد تسهيلات الامبراطورة (هيلانة)، وتشييدها لكنيسة (المهد) وغيرها من المزارات، حتى وقعنا على اسم (إيرهارد فون وينزل)، وكيف أنه كان ممن تلقوا موجة هجوم القوات الفارسية الأولى، ولم يعرف عنه شئ بعدها، وأخبرني (جان) مؤكداً، أن جده الأكبر أرسل وثيقته لأهل بيته مع بعض التجار والسفراء، وأن السر انتقل إليهم من هذا الطريق، أي أنه ظل حيًا حتى وصل (تبريز)، واستطاع الحياة بصورة طبيعية، واستخدام البريد والمراسلة، فسألته عن السر وفحواه، فكشف قميصه المدرع، ليريني درعًا أسود أثريًا بأسفله، كتب عليه اسم (إيرهارد فون وينزل)، مع شعاره، وهو أسد الراية البوهيمية الرمادي، على



خلفية حمراء داكنة، وأكد لي أنه طالما يرتدي هذا الدرع فلن يمكنه كشف السر لأجنبي قط، وهذا هو ما جعل أجداده يفتخرون بأصولهم طوال تلك القرون..

أصابني الإحباط قليلًا. استأذنت منه كي أقضي حاجتي، وانتظرني في المكتبة. غادرت بحثًا عن الخلاء وقد عبأت دلواً بالماء، حتى أرشدني أحد التلاميذ إلى زقاق خلفي يمكنني تأدية غرضي فيه، وهناك رأيت رجلاً يجلس على قارعة الطريق، يقضي حاجته بمنتهى الهدوء، وعلى مبعدة في نهاية الزقاق كانت امرأة تفعل الشئ نفسه بدون خجل، حتى أن عينيها وقعت عليّ فلم تتكدر ابتسامتها قيد أنملة، ولكني لم أعف المكان وأسرع بالفرار لهذا الأمر فقط، فقد كانت الرائحة لا تحتمل بحق؛ وبحثت عن مكان آخر، نظيف، لأن حاجتي كانت الصلاة، وليس الإخراج، حتى وجدت ممراً خاليًا بين شجرتين، تعزلان بغصونهما القريبة من الأرض من يقف بينهما، فتوضأت من الدلو البارد، وشرعت أصلي في سلام وطمأنينة، ورائحة الشجرتين اللوزيتين تغمرني كما لو أنها تطهرني.

وغطاني الخشوع حتى لم أعد أشعر بحركة الطلاب، الداخلين والخارجين من المكتبة.



كنت وكأنني قد انتميت للشجرتين، وصرت ثالثتهما.

وفي السجدة الرابعة، أغمضت عينيّ.. وسبحته، داعيًا إياه أن يهديني.

وفي باطن جفني رأيت أشجارًا أخرى..

ففتحت عينيّ بلا رفع..

ووجدتني في أرض مقفرة، تحيط بها الجبال من كل الجهات، وتتوسطها بضعة أشجار بينها عين ماء، كواحة صغيرة، يجلس عند قاعدة أكبر أشجارها سبعة رجال، عليهم ثياب نظيفة، فتقدمت منهم بحيرة، وملمس الأرض مازال محسوسًا على جبهتي، كأن العالم أصبح عموديًا، تجري أحداثه أمام سجدتي، ومن ثم جلست بينهم. كانوا يذكرون اللّه بخفوت، فذكرته معهم ساعة.

ثم إن أحدهم سأل كبير القوم:

البعض يا شيخنا يسفه الكرامة، ويكفر من يؤمن بها، فهل نرد عليه؟

وكيف يسفه معلوم بالضرورة؟



إنها تنزل في قلبه موضع التعظيم، فيشق عليه منازعة الأولياء للأنبياء في معجزاتهم، ويرفض الإيمان بها من هذا الوجه.

وكيف يعظمها؟

يخاف هذا البعض لو رأى من يطير في الهواء، ويطوي الأرض بكرامة ظاهرة.. ويدخل مشهدها في قلبه مشهد الهيبة.

وقتها قل له إن هذا ليس بشئ.

الطيران في الهواء ليس بشئ؟

نعم.. سئل عن هذا (أبو يزيد) رضي اللّه عنه – وكان جده مجوسياً فأسلم – فقال: إن (إبليس) يقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، وما هو عند اللّه بمكان، والطير يخترق الهواء، والبط يمشي على الماء، والمؤمن عند اللّه أفضل من الطير، فكيف يحسب كرامة ما شاركه فيها الطير؟! وهكذا علل جميع ما ذكر له، ثم قال: إلهي إن قوماً طلبوك لما ذكروه، فشغلتهم به وأهلتهم له – أي الكرامات التي هي وسيلة وليست غاية – اللهم مهما أهلتني لشئ، فأهلني لشئ من أشيائك. أي من أسرارك، وهو العلم. لأن العلم أسنى تحفة وأعظم كرامة عند (أبي يزيد



البسطامي)، وعند كل ذوي الألباب، والمعرفة أثبت للإيمان، عند (أبي يزيد) القطب الأشهر والكبريت الأحمر، وعند كل ذوي الأفهام، و..!

قطع حديثه المشوق بغتة، عندما لاحظني لأول مرة في مجلسهم، فنظر لي الجميع تلقائيًا، وكأنهم وحدة واحدة، فاهتز قلبي، ورفع هو رأسه المعممة إليّ، ثم نظر إلى أصحابه، فتأملني أحدهم بدهشة، ورفع لثامه فإذا به الدرويش، يقول لي بتعجب:

كيف جئت إلينا؟

قال ذو العمامة:

أرجعه من حيث أتى.

نهض الدرويش بحسم، واتجه نحوي، فوقفت في تحفز وتوتر، وأنا أهتف به برجاء حقيقي:

ماذا ستفعل؟! انتظر.

ولكنه دفعني دفعة جعلتني أنهض من سجدتي الطويلة، لأجدني خارج الـ (بيبليوتيكا كورفينيانا)، فتلوت التشهد وسلمت، وأنا أرجع لقاعة القراءة بذهن مبلبل، ومزيد من الأسئلة..

****

الصلاة صفت عقلي، فأعملت ذهني.

لقد اندهش الدرويش مرتين.. عندما وقعت أمامنا الغرفة الزجاجية، وعندما وجدت نفسي أمامه في ذلك المكان البعيد..

إذاً فهو لا يسيطر على رحلتي بشكل كامل..

عليّ أن أفهم ما يدبر لي.. أن أنظر لأمري من خارج الدلو.. بنظرة شمولية.

رجعت للسيد (جان) فوجدته يواصل بحثه في كتب أخرى، تحاول شرح ونقل ما حدث داخل الإمبراطورية الفارسية الساسانية، زمن (كسرى الثاني)، لكنني كنت بحاجة ماسة لتحديد بقية الإشارة.. لقد قال الدرويش : (ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض، فكنز الرجل المتيبس، فحراس النار).. فإذا كنا وصلنا لحواف قصة الجد، فكيف سنستخرج منها ما يشرح لنا طبيعة (حراس النار)، أو الحلقة الجديدة في استمرار حفظ السر؟ وما هو السر؟ لم أعرف سوى أنه نسب للصالحين عبر التاريخ.. فهل هذا هو ما يريد الدرويش أن أصحبه لكشفه؟. سألته:



كيف ستخفي عني ما تساعدني لأجل كشفه؟

الأمر خارج سيطرتي.. فنحن نقسم أمام آبائنا على حفظ سر الرؤيا، بمجرد ارتداء الدرع الأسود لأول مرة.. الملاك لم يخبر جدي الأول بهذا النسب الممتد حتى آخر الزمان، كي ننشره، ونجعله مضغة في أفواه السوقة والساخرين. كما أنك تؤكد لي أنك لست بساحر، بل مؤيد بأستاذ روحاني، هو من كان يكلمك أمام الغرفة الزجاجية، فلنر إذن كيف سيعاونك.

إن (جان) يرفض التخلي عن كونه جاسوساً، ويمارس تجسسه على ما أبحث عنه، ويرتبط به بشكل ما. يراقب، ويكتفي بالنظر. نظرت لسماء المكتبة بيأس.. هل يمكنني استدعاء الدرويش كجني مصباح (علاء الدين).. لكني حتى لم أعرف اسمه حتى الآن. وعدت للنظر في الكتاب من جديد، ثم جلست وأنا أدقق في صفحة تعرض صورة، لرسالة من تلك الفترة بالقرن السابع، ضمن رسائل عدة بين قرى (فلسطين) و(سوريا) التاريخية، بلغات رومانية وفارسية قديمة، وانتخبت رسالة بعينها، كانت باللغة العربية..

أو أنها هي ما انتخبتني..



كانت تومض بهالة خافتة، أو أن عينيّ أصابهما الوهن. سألته:

أستاذي أخبرني أن السر انتقل من جدك لحراس النار، هل وجدت في الكتب ذكراً عن شئ يشبه هذا؟

أسرع يقول بحماسة:

لا ريب أنه يقصد كهنة الزرادشتية.. (حراس النار) هذا كان لقبهم القديم.

هل كانوا في (تبريز)؟

لم يكن قد أنشئ هناك بيت للنار بعد، ولكنهم كانوا في كل أنحاء (فارس) وقتذاك.. هذا المرجع الساساني يذكرهم في فصل كامل.

ولكن كيف يستقيم حفظ أمر نوراني، بين يدي عبدة نار، مجوس.. كفرة؟

انظر هنا.. مكتوب أنهم كانوا يعتبرون النار مجرد شئ مقدس، مثله مثل الماء، كأدوات للطهارة الروحية، مثلما يعتبر المسلمون الحجر الأسود مقدساً، ويعتبر المسيحيون الصليب مقدساً، لكنهم كإبراهيميين يعبدون إلهاً واحداً؛ كذلك



كانت تومض بهالة خافتة، أو أن عينيّ أصابهما الوهن. سألته:

أستاذي أخبرني أن السر انتقل من جدك لحراس النار، هل وجدت في الكتب ذكراً عن شئ يشبه هذا؟

أسرع يقول بحماسة:

لا ريب أنه يقصد كهنة الزرادشتية.. (حراس النار) هذا كان لقبهم القديم.

هل كانوا في (تبريز)؟

لم يكن قد أنشئ هناك بيت للنار بعد، ولكنهم كانوا في كل أنحاء (فارس) وقتذاك.. هذا المرجع الساساني يذكرهم في فصل كامل.

ولكن كيف يستقيم حفظ أمر نوراني، بين يدي عبدة نار، مجوس.. كفرة؟

انظر هنا.. مكتوب أنهم كانوا يعتبرون النار مجرد شئ مقدس، مثله مثل الماء، كأدوات للطهارة الروحية، مثلما يعتبر المسلمون الحجر الأسود مقدساً، ويعتبر المسيحيون الصليب مقدساً، لكنهم كإبراهيميين يعبدون إلهاً واحداً؛ كذلك



المجوس، يعبدون الخالق الوحيد للكون وهو الحكمة المضيئة (أهورامزدا)، أي أنه دين توحيدي.. نبيهم (زرادشت) حلقة وصل بين حضارة (بابل) القديمة، واليهود الذين تم سبيهم، فنقلوا عنهم الكثير إلى ديانتهم.

ولكن كيف نصل لحراس النار، الذين حصلوا على السر، حتى ننتقل لمن يليهم في السلسلة؟

هذا سيحتاج منا لأيام وشهور حتى نقرأ كل ما كتب عن تلك المرحلة، وربما لا نتوصل لإجابة مقنعة..

عادت الرسالة تجذبني. كنداء من بعيد.

كانت رسالة عادية أرسلت من مملكة (المناذرة) العربية، التي أسسها الساسانيون في العاصمة العراقية (الحيرة)، كخط دفاع أمامي لحدودها الغربية، تنقل بين سطورها أخبار الحرب بين الفرس والروم، أو الساسانيين والرومانيين، لقبيلة عربية أخرى في (الحجاز)؛ فيما يشبه أنموذجاً للجاسوسية الإسلامية التي نجحت في اختراق المجتمع الساساني، والموقف العسكري لبلاد (فارس) قبل الغزو الإسلامي لها.. ما أعجبني ليس الاختراق العربي، بل حرص المؤلف الأوروبي على تضمين هذه الوثائق، وتشييد هذه المكتبات لتلك



الكتب في هذا الزمن المبكر، وهو ما ضمن لأوروبة عصر نهضة متفوقاً عن جدارة..

لكن عادت الأحرف بالذات تداعبني، وتتحرك وتنفصل، ثم تتطاير وتتعلق في الهواء !

وبدأت أشعر بالدوار والطنين، ثم تضخمت الأحرف، وراحت تصنع عاصفة مدمرة لكل ما حولي من كتب ومرئيات.. وبدأت أنجرف، وأدور مع العاصفة، وأحاول التشبث بالأحرف، ولكنها كلها كانت تدور في دوائر مخروطية منتظمة، بحيث تكون قمة المخروط الضيقة في الأعلى وليس الأسفل، وهذه القمة كان يحتلها حرف وحيد ثابت. حرف بدا وكأنه السيد.

ب.

وكان عليّ الوصول لـ (ب).. الباء هو النجاة كما أخبرني الدرويش.. الآن أتذكر..

كافحت وسط عاصفة الأحرف.. ألقتني (ص)، فاصطدمت بعنف في (ك) عملاقة.. ولكني تشبثت بـ (أ)، فانزلقت على جسده الأملس العمودي، لأسقط في قعر (ق)..

لكن استدارته ألقتني في رحابة (ن).. لولا أن النقطة ظلت تصدمني بقسوة، وكانت كل النقاط غريبة،



غير منيرة، كأنها دخيلة على الأحرف.. ثم لمحت (ع) تدور صاعدة.. نعم، إن أملي في الصعود.. حيث يوجد السيد.. فوثبت بكل قوتي أحتضن (ع)، وانتظرت حتى دارت بشكل مغزلي لأعلى، ووجدتني أتأمل (ل) في انبهار.. إن (ل) تهبط قليلا في مدارها، ثم تصعد ملتصقة بـ (ب) بشدة، إذاً فاللام هي المسار الأخير..

تحينت الفرصة، وأنا أكافح حتى لا أنزلق من فوق (ع)، حتى إذا ما تشابك مدارانا، ألقيت بنفسي فوق (ل)، وأخيراً وصلت للسيد..

أخيراً صعدت فوق (ب)..

ب.. السكينة..

ب.. الإشراف..

ب.. الحكم..

إن (ب) هي الأجدر بالاحتواء، هي الأعظم..

حتى الأطفال يعرفون بالفطرة سر الحروف.. وعلم الحرف.. فالطفل عندما يشعر بالحرارة اللاسعة، ينطق حرف (ح).. قد يكون في مرحلة لا يعرف معها



أن (ح)، هي (حرارة)، و(حميم)، و(حمى)، و(حرق)، و(حار).. ولكنه يعرف بقلبه سر الحاء.

ومن فوق أعلى قمة، رأيت (إيرهارد فون وينزل) في مسكنه..

منذ اثني عشر قرنًا.

****

إيليا كابيتولينا

كما قال الدرويش: (وبينما نتراجع سنتراجع).

فبينما نغوص في القرن الخامس عشر، غصنا بكل قوتنا في القرن السابع.

وعبر سطح شفاف، كماء منساب، رأيت الفارس القديم، وهو يودع زوجته وداعًا حارًا مريرًا أمام أرضه الخصبة، ضمن أراضي الفرسان في (بويهايمم)، أو كما كان يطلق عليها قبل أن تصبح (بوهيميا)، وهي تقول له في رجاء، وطفلته تبكي لفراقه:

لا تتركنا هكذا.. أناشد فيك مسيحيتك.. إن فكرة صناعة الأخشاب ستكون..!



ولكنه قاطعها في حسم، يليق بالرجال الذين يملكون أمرهم:

اجعلي (ويذرز) يستكمل القنطرة الجنوبية، ذلك الأيرلندي الأحمق لا يمكنه أن يكون شقيقك، فأنت أكثر صلابة منه.. إلى اللقاء يا (إيفيلين).

قبّل (إيرهارد) ابنته (ماري) بلطف مفاجئ، وهو يتحسس شعرها الأحمر مثل أمها، وقد شعر لوهلة أن العالم كله قد صار آمنًا، طالما يغوص بنظره في عينيْ طفلته الأردوازية الزرقاء، حتى آلام مفاصله تلاشت كالسحر.. لكن لكل شئ نهاية.. أو بداية.. تأملها للحظات كأنه يحفظ أدق ملامحها عن ظهر قلب، وهي تلثمه بحنين الوداع، ثم استعاد حزمه، ورفع الدرع الأسود كليل، يحول بين نهار الأهل الدافئ، ونهار البحث عن الإيمان البعيد.. نفس الدرع الذي ورثه (جان)، لكنه هنا أكثر بريقًا كأنه صنع للتو، رغم آثار ضربات السيوف عليه، والتي تؤكد فروسية الرجل.. وارتداه في ختام دروعه السوداء المميزة، المخيفة، وركب جواده المحمّل بزاده وأسلحته، ثم نخسه بكعبه ليلحق بمجموعة الحجيج التي تنتظره عند الجسر، في نهاية أرضه، وامرأته تلوح له والدموع تملأ عينيها، أمام منزلهم الحجري الحصين.

الأمر المثير للغرابة، أنني وصلت لأعماق أخرى أبعد.. في داخل نفسه وعقله، ورأيت ما يفكر فيه ويستعيده، وهي تلك الرؤيا..

رؤيا الملاك التي أخبرني عنها (جان)، والتي سيطرت على تفكير جده الأول.

لم يكن الملاك كائنًا خارقًا، بل رجلاً مهيباً، من أصول أوروبية، تحيط به الأنوار، له شارب مهذب، ولحية شقراء هائلة، يقف في حلمه كأوضح ما يكون.. وصوته الرخيم واضح لا تشوبه شائبة، مما يعني أنها رؤيا حقًا.. حتى أنا ظننته حدثًا حقيقيًا، وذكرى، لا مجرد حلم مستعاد.. قال له بسلافية قديمة:

(إيرهارد).. الشجرة الطيبة خيرة.. وما فكرت فيه تحتها خيّر. الخشب أرق من الحديد، وقد نلت نصيبك من الحديد والسيف، وحان وقت الخشب والتابوت.. لكن قبل الموت عليك بالشجرة الحقيقية، وقبل التابوت عليك بالتابوت.. أما الشجرة الحقيقية فهي شجرة الحقيقة، والنور، مشجّرة نسب عيال اللّه وأوليائه، رجاله، وأقطابه، وقديسيه، منذ (آدم) حتى يوم الدينونة.. وأما التابوت فهو تابوت الرب، فيه بقية من (موسى)، وفيه نور وقدسية.. عليك بـ (إيلياء) يا (إيرهارد).. عليك بـ (إيلياء) وحفظ السر.



كلمات ذكرتني بأسلوب الدرويش، ولكن لغته السلافية التاريخية جعلتها كآيات من أحد الأسفار. قالها ثم أشار جهة اليمين، فرأيت ما رآه الفارس الصنديد، وركع له بـَهتاً، ، وقد فقد قدرته على التماسك والرصانة. رأيت معه الأنوار، والتجليات، وقد تدلت من أغصان وفروع شجرة نور عظيمة، مئات الآلاف من الثمار الأشبه بالأحجار الكريمة، وجواهر أشبه بالثمار، كلما دققت في ثمرة منها، اقترب ظلها، وتضخمت ملامحها، وبرزت أمام عينيك، كأنها كوكب دري تنظر إليه من المقراب، فترى فيها شكل أحد الخلق، واسمه، ووقته، ولو أبعدت عينيك عنها تختفي في الحال، لكنها تظل بعيدة في مكانها الأصلي بالشجرة؛ وكان الجذع الأساسي يسطع بقطع من أضواء أشد، بحيث لا يمكنك أن تحدد ملامح أصحابها، وكانوا أجل وأعظم، وبألوان متباينة مذهلة.

كانوا الأنبياء.

وخفق قلبي حارًا، وشعرت أنني أيضًا أركع.. في عالم المثال.

لا يمكن رؤية كل هذا في عالمنا الأصلي، وقد غُرس في عقلي أنني في عالم كالبرزخ، بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، عالم الشهادة حيث الملأ الأعلى، وعالم الملكوت حيث الكون والعالم، ونحن.



في قلب أغصان الشجرة العملاقة، تألق نور مختلف عن الأنوار البهية. كان النور ذهبيًا، عندما يحدق بصرك فيه، يتقارب إلى رؤيتك بدوره، فتتبينه بشكل أوضح رغم المسافة الكبيرة. ومن منظور عيون (إيرهارد فون وينزل) رأيته. لم يكن لوجه آدمي، بل كان شيئًا جامدًا، من ذهب مشع ليس من صنع بشر، أشبه بصندوق كبير، له مساند معشقة في حلقات مصبوبة بجانبيه، عليه نقوش لوجوه الأنبياء، وكلمة (لا إله إلا اللّه)، وإشارة للطوفان، ورسم لبعض مشاهد يوم القيامة العظيمة..

إنه (تابوت السكينة) المشهور عند الأديان الإبراهيمية، والذي أنزلته الملائكة للملك (طالوت)، فانتصر به على أعداء (بني إسرائيل). قص علينا شيخ الكتّاب ذات يوم، أنه لما أمر بنو (إسرائيل) بقتال عمالقة (جالوت)، لم يطيعوا نبيهم (شمويل)، وطلبوا أن يكون عليهم ملك، فاصطفى اللّه عليهم سقاء كان يسقي على حماره، له علوم ربانية وبنيان قوي، وهو (طالوت) ملكهم الجديد، فلما كان (طالوت) من سبط (بنيامين)، وليس من سبط (لاوي) الذي يبعث فيه أنبياؤهم عادة، عصوا وتمردوا ثانية، حتى أيده اللّه بملائكته، تهبط حاملة التابوت في غمامة، ليكون ملكًا عليهم بأمره عز وجل.



عرفه (إيرهارد) فعرفته، وشاهد شكله فشاهدته، بثقافته المسيحية عرفه بتابوت (داوود)، وبثقافتي الإسلامية عرفته بتابوت السكينة.

لكن لفت نظره/نظري ضوء أخضر مبهر، برّاق، في قمة الجذع، ونهاية الجزء السميك فيه؛ ولم نر وجه هذا النبي، لكني عرفت أنه طالما وضع في النهاية، فهو الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وسلم، في حين لم يتأكد هو من هذا اليقين الذي شملني، فسال له دمع حنيني على الرغم مني، وارتجفت معه أصابعي شوقًا، وسرت به في وجداني أنغام قصائد الفقراء، وإنشاد المتصوفين، ولفت انتباهه – وعلى الرغم مني انتباهي بالتالي – ياقوتة بعيدة، فوق فرع في أقصى يمين الشجرة، تتصل بخيط فيروزي دقيق بالضوء الأخضر الأخير، وعندما دقق فيها تضخمت، فظهر وجهها، واسمها..

(زيدة).

حاولت النظر للضوء الأخضر بكل قوتي، لرؤية الملامح الشريفة، ولكنني كنت مرتبطاً بذكراه، ووعيه هو، الذي انتخب بدلاً من ذلك التحقق من (زيدة)، عندما تتبع نسبها، فرأى الأعاجيب. ثم إنني تذكرت الاسم.. يا للمصيبة!.. إنها هي..

(ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض، فكنز الرجل المتيبس، فحراس النار، فـ (زيدة اليابسية)).

السر يتحرك من جديد.

لكن ما صلتها بكهنة الزرادشتية؟ وماذا تعني اليابسية؟

انشغلت بأفكاري للحظات، فلم أنتبه إلا على انتهائه من حفظ الشجرة عن ظهر قلب، رغم ضخامة عدد الأسماء بها، والمعلومات المتعلقة بكل اسم، مثل مكانه وزمانه وطريقة الاتصال به.. ثم فطنت إلى أنها هبة ربانية يمتلكها، وهي الذاكرة القوية، والاستظهار الممتاز.. وناداه الرجل، الذي استشعرت – ربما من الدرويش – أنه قطب زمانه، فتعجبت، وكنت أظن أن كل قطب لابد وأن يكون مسلماً عربياً! ثم فهمت أن قبل الإسلام كان هناك أيضًا لكل زمان رجل صالح، يكون روح العالم، وموضع نظر اللّه فيه، هو القطب الغوث، لذا ليس شرطًا أن يكون على ظاهر الشريعة الإسلامية، أو من جنس العرب.. وقال له برزانة وعمق، عندما علم أنه فرغ من حفظ النسب المبارك:

(إيرهارد).



وقاوم الفارس السلافي كي يستمر اتصاله ببهاء الشجرة، وبركتها، التي تسربت إلى روحه، فملأتها سعادة وغبطة، ولكن القطب كرر بصوت مهيب:

(إيرهارد) أيها الصالح.

فانتزع الرجل نفسه بصعوبة من النورانية، والتفت إلى الرجل جميل المحيا:

انظر.

أشار القطب إلى اليسار، فنظر الفارس، ورأى شيئًا كان معناه مبهمًا بالنسبة إليّ، فقد كان مبنى ضخمًا لا يقل ارتفاعه عن خمسة عشر مترًا، من رخام قديم، أشبه بقوس مقام على عمودين مضلعين، تعلوه لوحة كتب عليها برومانية قديمة فهمتها كالعادة: (مجلس الشيوخ الروماني والشعب، أهدى هذا لتايتوس فسباسيان ابن فسباسيان أغسطس)، وفي فراغ القوس نجمة خماسية معلقة في الهواء، ارتعد لها (إيرهارد)، وفكرته تدوي في عقله/عقلي: (سحر أسود.. نجمة السحرة وأعمال الساحرات).. ثم فكر أن هذا لا يعني أن الرؤيا فاسدة، بل يؤكد على سموها، إذ تضع النسب الشريف إلى اليمين، وتقدسه بالأنوار الطاهرة، وتحذر من الشر إلى اليسار..



ولكن ظل القوس الحجري والنجمة المعلقة في فراغه، مستعصييْن على فهمي.. وقد شردت دلالتهما بعيداً عن أواصر منطقي، ومناط لبي. فما علاقة المباني بما أبحث عنه؟ هل سأزور هذا المبنى؟ ولماذا تظهر نجمة السحر المدنس في رؤيا مقدسة؟

صهلت الخيول وهي ترحل، والرؤيا تتكرر في ذهن (إيرهارد فون وينزل) مرارًا وتكرارًا، حتى أنني شعرت بحاجتي لمغادرة وعيه.. لا ريب أن الرجل في طريقه للجنون، أو أنه وهب حياته كلها للتمحور حول حديث القطب.. خاصة وقد بدأ يصفه بالملاك.. هو يعتقد أنه ملك وليس بشراً له القدرة على التخاطر، لذا فقد كان يصرح بالبشرى لكاهن مجموعة الحجيج الصغيرة التي رافقته، والتي تتكون منه وكاهن منطقته، وفارس صغير كان يعاونه في إجلاء الجرمانيين من (بويهايمم)، ويطمع في تشييد قلعته الخاصة في المستقبل، ومزارع يعمل في أرضه، ورجل روماني يعمل في طلاء الكنائس.. لكن شاب إسراره الحذر، فلم يشرح التفاصيل.. ذكر فقط أن الملاك أرشده لضرورة الحج في أيامه الأخيرة، وأن هذه السنوات هي سنواته الأخيرة.

كانت الرحلة طويلة حتى البحر المتوسط، فوق إحدى السفن اليونانية المسلحة تحسباً للقراصنة، ولكن وضعي العجيب، جعلني في حل من متابعة

تفاصيل لا ترتبط بأمري هذا، مثل بقية رحلتهم البحرية، فكان سطح الماء الشفاف الذي أراقب منه يتعكر قليلاً، ثم يصفو، لأجد الرجل قد وصل لمرحلة أخرى من قصته.

ها هو ذا قد وصل مستعمرة (إيليا كابيتولينا)، أو كما يطلق عليها أسلافنا العرب (إيلياء).. عاصمة مقاطعة (سوريا الفلستينية)، أو (فلسطين التاريخية، في زمن بعيد..

سنة أربع عشرة وستمائة بعد ميلاد المسيح، زمن الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطور الروماني الشهير (هرقل).

كانت هذه السنة بالذات ٦١٤م، قد شهدت اضطرابات غير مسبوقة في هذا الجزء من العالم، وسط ثورة من اليهود ضد الرومان لمساعدة الشاهنشاه (كسرى)، في زحف جيوشه الساسانية التي يقودها طموح فارسي لا ينتهي، مما ولد عداوة مستطيرة بين اليهود المشتتين، والمسيحيين بكافة طوائفهم.

ووسط هذا الجو المشحون، خاضت مجموعة (إيرهارد) السلافية الصغيرة زحام (إيلياء)، أو (أورشليم) كما يذكرها الكتاب المقدس ويسميها (إيرهارد)، وراحت الروائح الشرقية تحاصرهم، وتثير



الجمال العربية تعجبهم، بينما تنوعت أعراق البشر بين جنود رومانيين، وحجاج أوروبيين، وعرب مسيحيين نصفهم من الرهبان، وتجار آسيويين، فضلا عن مئات الوثنيين من الكنعانيين، واليبوسيين، والآراميين، والعموريين، أما اليهود فكانت المدينة محظورة عليهم، منذ بنى (هادريان) الكولونيا الرومانية (إيليا كابيتولينا) فوق أنقاض (أورشليم)، فاكتفوا بإقامة شعائرهم في مستعمرتي (طبريا) و(الناصرة) وقرى (الجليل). استقر المقام بالخمسة في رحاب دير (العذراء) لقربها من كنيسة القيامة، وبالتالي من القبر المقدس، أهم معالم زيارة الحجيج لثلاثة قرون خلت.

كانت رحلتهم تتضمن كذلك زيارة أطلال معبد (جوبيتر)، والحائط الغربي الخاص بهيكل (هيرودس)، الذي مازال قائماً منذ ما ينيف على القرون الخمسة، كما عرفت من معارفه و معارف المحيطين به؛ لكن لم يتخيل الحاج (إيرهارد) ما وجده.. فبينما يحرس رفاقه المنطقة متخفين بظلام الليل، وقد وزع الكاهن والفارس الصغير والمزارع والروماني أربعتهم على أركان قطعة الأرض الأربعة، دله أحد السامريين على مدخل سري وسط الأرض الخربة، أدى بهما إلى كهف مهجور تحت الأرض، تألم السلافي في نزوله إليه بسبب



تيبس المفاصل، دون أن يفصح عن هذا بأدنى إشارة، فأثار إعجابي بفروسيته؛ وأشار السامري إلى التربة المغبرة وبقايا حطام آخر أقدم، يتوسط أرضية من أحجار طحلبية، متشققة، تحيط بها بعض الحفر السوداء المنتنة، وقال:

– اصنعه هنا.. فهذا هو (بيت همقداش)[7].

كان السلافي الخبير بتصميم المصنوعات الخشبية، قد وعد هذا اليهودي المتخفي في الدير، واسمه (يوسيفوس)، بصنع نموذج مقلد دقيق لتابوت العهد، بعد أن كشف السامري حديثه لكهنة الدير، ووصْفه لبعض ما جاء في رؤياه العجيبة، ومنها التابوت الحقيقي، ولكن الحاج اشترط أن يفعلها فوق أرض (هيكل سليمان) حسب التسمية المسيحية، أو (بيت المقدس) حسب التسمية اليهودية.. أو باختصار (المعبد).. وذلك احتراماً لرؤيا الملاك التي يؤمن بصدقها، لكنه لم يتخيل أن ذلك السامري، سيرشده إلى جزء من المكان المقدس القديم بالفعل، والذي تم تدميره هو و(أورشليم) ثلاث مرات في التاريخ القديم:

وكيف أتأكد أنه قدس الأقداس؟



قالها للسامري، وهو يتلقى أقوى مفاجآت الليلة، على ضوء مشعل محدثه:

إنه ليس قدس الأقداس.. قدس الأقداس لا يمكن أن يلجه غير يهودي، وتؤدي إليه إحدى تلك الحفر الأربع، وفيه بقايا من كنوز بيت الإله.. الإله الذي لا وجود له إلا بنا!

نظر (إيرهارد) للحفر في ذهول، وهو يتخيل هذه الكنوز المبجلة، وعملات الشيكل المقدسة.. خلف هذه الرائحة النتنة يوجد أقدس موضع، من أقدس مكان لعبادة الرب على الأرض.. كان هذا مثيراً للقشعريرة.. وفي الكهف المغبر القديم، قال له في حذر:

لكن بيننا وبين اليهود ما بيننا.. ألا تخشى أن أشي بك؟

بين من ومن؟ دع الساسة لسياستهم وأطماعهم العسكرية البحتة، كلانا مؤمنان حقيقيان، وكتابكم المقدس بنصفه أسفارنا التوراتية المقدسة. إنك لن تشِـيَ بالمقدّس.. حديثك الدامع لكهنة الدير أكد لي صدق رؤياك سيد (إيرهارد).

كنت أتمايل فوق الباء بنعومة، متابعًا الحدث شديد الإثارة، عندما شعرت بثقل جديد معي..



لكني لم أتمكن من الابتعاد عن المشهد والالتفات.. ما زال ظلام المعبد يملأ عينيّ، لكن جسدي شعر بالحركة.. وبصوته:

السامري صادق.

غمغمت بقلق:

من يتحدث؟!

أنت تعرف من.

ابتلعت ريقي القليل.. إنه الدرويش ولكن بوجود جديد غريب.. وجود شبحي:

لا أثق باليهود.. إنهم كفار.

السامري يختلف.

فيم؟

السامريون موحدون.. يشهدون أنْ لا إله إلا اللّه، بلا شريك ولا مشير ولا ولد ولا زوجة.

أخذني التعجب.. الدرويش يستمر في كيل الصدمات لمعتقداتي:



كيف هذا؟ لقد قال بالحرف: إن الإله لا وجود له إلا بنا! حاشا للّه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا.

يا (سراج).. ما ثمّ إلا جمع.

ماذا؟

لا ظهور للحق إلا بالخلق، ولا ظهور للخلق إلا بالحق. هكذا تجد أن السامري لم يبتعد كثيراً عن الحقيقة.

رباه.. لولا أنني أرى كراماتك بعينيّ، لاتهمتك بالزندقة.. أي عته هذا؟ كيف لا يظهر الحق إلا بالخلق وهو القاهر فوق عباده؟ هو الظاهر، القادر، المحيط، الجبار.

لا ربوبية بلا مربوب. وما تراه حولك في حياتك العادية ما هو إلا وجود مجازي، ملحق بوجود اللّه.. الموجود الوحيد.

يا إلهي.. يا إلهي.. لا أشعر إلا بنهاية مشؤومة من جراء هذا الحديث العقائدي.. هل تعتقد أنهم في الجحيم سيمنحوننا راحة أسبوعية؟

ستجد الكثير من الوقت لتفكر فيما قلت، وستبحث، وتعرف بنفسك.. الآن ما عليك سوى



الصمت.

كنت بالفعل أحادث نفسي، لأني لم أكن أراه، ولكنه بمجرد أن أنهى عبارته، شعرت بالغريزة أنه اختفى.. ابتعد عن بؤرة الحدث الوهمي الذي أحياه، فالتقطت أذناي حديثًا لم أتابعه جيداً قال فيه (يوسيفوس)، وضوء مشعله يخبو ببطء:

... لذا ستتحقق النبوءة، وسيجد اليهود أنهم أفسدوا كل شئ من جديد.. وأن ثمن ما جنته أيديهم فادح للغاية.

نبوءة غريبة. إن بعض أقوامنا من القبائل السلافية يعاون الساسانيين من أجل المال، لكننا نعرف جميعًا أن (هرقل) فيه شئ من اسمه، وأنه قوي مدبر، لن تسقط حمايته بهذه البساطة أمام المجوس.

إن اليهود قد جمعوا جيشًا بالفعل لمعاونة (كسرى) على غزو (إيلياء)، ولن يتوانوا عن سحقها سحقًا من أجل استعادة استقلالهم الضائع، وسيادتهم الوهمية، وسط إمبراطوريات لا تأبه بمقدساتنا.. لذا فليحل الخراب كما قالت نبوءة الحاخام، حتى يذوقوا من ويل أمرهم.. والآن لنصعد.. المشعل يخبو.. وقريبًا سأزودك بما يلزمك.



حسنًا (يوسيفوس).. سأحقق لك طلبك الحالم، وسأصمم تابوت عهد مقلداً لما رأيت، مقابل بعض من كنوز قدس الأقداس.. ولو عملة قديمة واحدة، عليها رموز وأدلة الزمن القديم. سؤال أخير: أي حفرة تؤدي لقدس الأقداس؟ ولماذا تفوح منها هذه الرائحة الثقيلة؟

أما أيها فهو ما لن تعرفه أيها المسيحي الطيب، والرائحة ترجع لجثث الوطاويط والفئران، التي أدهن بها فوهات الحفر، لمنع الإنس من التفكير في الهبوط.

وغادرا الكهف، وسد (يوسيفوس) فوهته السرية بصخرة ثقيلة، على هيئة حافر جواد بارع الصنعة، كانت لتمثال (هادريان) الوثني المحطم.

****

تِبريز

(سيكون لك جد (جان)، مساراً وسرَبا).

كذا قال الدرويش في حديثه الأول في مقابر بلدتي السوهاجية، ولكن هل يظل المسار حيًا حتى أعرف ما أريد..



لقد بدأ الغزو الفارسي.

وكأنها الدينونة الأخيرة حسب تعبير الرهبان المساكين، اندلع الصراخ، وسالت الدماء فوق الدمار، تضيء انثيالها نيران الموت والخراب.. كل الناس كانت تجري في كل اتجاه، ولكن حيثما ولوا أدركهم الموت الساساني، وفي طليعة الفرس الجيش اليهودي المتحالف، الذي أطبق على المدينة في حصار محكم، بقيادة (بنيامين الطبري)، تحت قيادة عامة من الفارسي (شهرباز)، انتهى بعد عشرين يومًا باقتحام الكولونيا، وحرق الكنائس والأديرة، وقتل عشرات الآلاف من الرومانيين والمسيحيين، حتى أنا – رغم متابعتي البعيدة – خشيت على نفسي من هذه المقتلة!

توسل (إيرهارد) بكل شئ حتى ينجو، بماله، وجاهه، بلا فائدة، لم يعاونه أي شخص للهرب من الحصار المميت، حتى لم يجد خيراً من (يوسيفوس السامري)، فأسرع إليه في الأرض الخربة، والجيش المتحد من المجوس واليهود يقترب وسط بحر من الدماء، وبحث عن المدخل السري فلم يهتد إليه، ثم فوجئ برفيق سفره الروماني، الذي يعمل في طلاء الكنائس وهو يقترب من المكان، ومعه رجلان أحدهما أجدع الأنف، ثم صاح بفرح عندما وجده:



سيد (إيرهارد) .. حمداً للرب.. قد عثرت عليك في المكان الذي توقعته.

هل جننت.. لماذا لم تفر بعد مع الآخرين؟

لأنهم قضوا نحبهم.. الكاهن لحق بكل الرهبان الذين تم ذبحهم، وكذلك المزارع والفارس الصغير، لكنني وجدت هذين السيدين الطيبين.. إن اليهود لم يتعرضوا لهما بأذى، وقد وعداني بالحماية.

أمسك (إيرهارد) مقبض سيفه في توتر غاضب، وقد رأيت أفكاره جلية واضحة.. إنه يعتقد أن الروماني فقد عقله تماماً، ويستحق صب كل اللعنات تباعاً، فالرجلان من جواسيس اليهود بلا شك، وقد أمهلاه حتى يجدا هذا الفارس الذي يبحث عن الهيكل:

الحماية مقابل ماذا أيها المأفون؟!

سيد (إيرهارد) لا يداخلنك الشك.. إنهما رجلان طيبان، كنت أناقشهما بخصوص التوراة قبل الغزو، وكيف أنه لا يمكن أن يكون (موسى) هو من كتبها، ثم يشير لنفسه بصيغة الغائب.. وقد أبديا تفهماً كبيراً.. إنهما تقيان.. ولكنهما اهتما بنسخة التابوت التي سمعتك تقول إنك تنفذها، وهما يريدان رؤيتها فقط.. ساعدني كي أنقذنا من الهول، بحق المسيح إنه ثمن بخس لنجاتنا، وقد



أقسمت لهما بالعذراء والقديسين أن طلاءك لها، فاق كل ما طليته أنا من بديع تلوين ودهان الكنائس والمذابح.

أدرك (إيرهارد) عدم جدوى التفاهم مع عقل طيب بسيط كعقل الروماني، فالتفت مباشرة للرجلين ذَوَيْ النظرة الخبيثة، وقال بصرامة:

اتركا هذا الحاج الطيب وشأنه.. إن له أسرة في أرض بعيدة، وربما نجا من القتل.

تقدم منه الروماني بابتسامة واثقة، وهو يقول بحنان متفهم:

ما الذي تقوله (إيرهارد) العزيز.. هل مازلت تتوجس منهما خيفة؟ إنني أثق بهما تمام الـ...!

بتر كلامه دفعة واحدة، عندما شعر بالنصل الحاد يغوص في رئته اليسرى عبر ظهره، وسرعان ما خرج الدم من أنفه وفمه مع تنفسه، فالتفت للوراء ببطء مذهول، وألم لا يصدق، قبل أن يتهاوى بسكون وسط ثيابه الفضفاضة، وقاتله أجدع الأنف يتقدم من خلفه، وهو يمسح الدماء عن خنجره العملاق في جسد الروماني، متخطياً الجسد بصندله الجلدي الرث، قائلا بعبرية فهمتها كالعادة بينما فهمها السلافي بصعوبة:



من السهل التعرف إليكم أيها المسيحيون.. كاهن يعلق الصليب.. وعامل طلاء كنائس، يعتقد أن (موسى) لم يكتب التوراة.. أحمق لعين.. ها ها ها ها.. وحاج من (بويهايمم).. أين تقع (بويهايمم) هذه بحق الشيطان؟ إن المسيحيين صاروا ينضمون لدين، لا يفهمون حتى لغة أهله الأوائل.

انتزع (إيرهارد) سيفه بصوت معدني قوي، وهو يرد بعبريته الضعيفة، التي حاول تطويرها طوال فترة إقامته في (إيلياء):

وهل أنتم أهله أم قتلة نبيه؟

ستعرف بعد أن نرى تحفتك البديعة.

اذهبا إلى جحيم الأرجاس.

إذن.. لم تترك لنا الخيار.

ثم هجما بخناجرهما، واعتقد السلافي لوهلة أنه سيمزقهما إربًا، فرغم آلام التيبس، إلا أنه فارس لا يشق له غبار بالتأكيد، ولكن مشهدهم كان قد جذب للأسف خمسة جنود من طليعة الغزو الفارسي، وكانوا قد ميزوا اليهوديين على الفور، فانقضوا على (إيرهارد) بسرعة، وحاول هو الاعتماد على دروعه لإنقاذه من ضربات السبعة، وهو يمزق



بعضهم بسيفه الطويل، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة بالفعل، وسرعان ما تعثر السلافي وسقط، وهو يلعن الحاج الروماني وبؤس منطقة الغرير، ورغم أنه جندل ستة من السبعة، بمهارة يحسد عليها في سنه هذا، إلا أن السابع أفقده سيفه أخيرًا، وضربه بحجر قوي في وجهه، فأظلمت الدنيا أمام عينيه، في نفس اللحظة التي تحرك فيها أحد الأحجار، وبرز رأس (يوسيفوس السامري)، وهو يهتف:

من هنا أيها السلافي.

سمعه الفارسي الذي تبقى، فترك لوهلة انتقامه من قاتل زملائه، وتقدم بجروحه النازفة من السامري، وطعنه بدون أن يتبادل معه كلمة. رأيته يلقي نظرة على جسد السلافي المسجى، ثم يهبط إلى الكهف خلف السامري الزاحف، والذي أدخل رأسه في إحدى الحفر السود، وترك جسده يسقط فيها، فهبط خلفه الجندي بتعجب، ليجد المفاجأة..

قدس الأقداس..

تجويف كهفي آخر، تراصت فيه بعض الأموال القديمة، لم يفهم منها الجندي سوى أنها قطع نقدية ذهبية، فأسرع في لهفة يجهز على

السامري، ثم خرج وقد نسى (إيرهارد) تماماً، واستدعى قائده المباشر مع بعض الجنود لنقل الغنيمة، وانتبه القائد لموقع الأرض الخربة والحائط الغربي العتيق، وأخرج خريطة (إيلياء)، ليفهم على الفور أنهم فوق المعبد، وعندما هبط بنفسه لأعماق الأرض، عبر الأنفاق الضيقة، رأى الشيكلات القديمة، ولكنه انتبه لما أغفله الجندي بكل بساطة..

تابوت السكينة.

كانت نسخة مقلدة انتهى (إيرهارد) من صناعتها بمهارة عالية، استخدم فيها كل موهبته في صناعات الأثاث الخشبي، وكل موهبته في التذكر، مستعيناً بأخشاب (يوسيفوس) التي تعمد جعلها قديمة عتيقة، فأوحت بأثرية التابوت بالفعل، حتى أن القائد أخفى الأمر عن اليهود من حلفائهم، وقرر ضم التابوت لغنائم غزوهم، التي سترسل لـ (فارس).

وفوق الأرض، تذكر الجندي المصاب فعلة السلافي فاقد الوعي بهم، فأدلى بتفاصيل المعركة لقائده، فأمر بقتل الفارس عقاباً له، وبينما يستيقظ (إيرهارد) وجد نفسه محاطاً بالمجوس واليهود، وأحد الجلادين على وشك جز رأسه:



ماذا تفعلون؟ إنني الفارس (إيرهارد فون وينزل).

ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا، لولا أن ظهر أحد القادة الفرس فجأة، وحدوات جواده العظيم تنثر الشرر، وأمر بإيقاف أمر الإعدام.. وعندما طالع (إيرهارد) وجهه، طفرت دموع الذهول من عينيه، وهو يصرخ بشوق عنيف، كاد يفقده وعيه مرة أخرى:

بحق الإله.. إنه أنت!

كان نفس الرجل الصالح الذي زاره في رؤياه، والذي جعلني أتأمله بذهول في عالم الواقع.. مغمغمًا:

رباه.

بينما قال الصالح للقائد الفارسي:

إن (شهرباز) أمر بعدم قتل المتعاونين معنا.

ارتبك القائد عندما لم يستطع تحديد هوية زميله، الذي يفترض أنه يماثله رتبة، وتخيل أنه ربما يكون من سلاح أفيال الحرب، الذي جاء متأخرًا في نهايات الحصار، أو من طائفة الفروسية الخاصة (أزادان)، المكونة من أبناء النبلاء وتتلقى أرقى أنواع التدريب:



لكنه ليس من اليهود أيها القائد، وقد قتل جنودنا.

ليس من اليهود ولكنه من السلاف، وهم من أهم حلفائنا الخارجيين مع الأوراسيين حول (القسطنطينية)، وأنت تعرف أن القتل دفاعاً عن النفس ليس بجريمة. اجعله في الأسرى.

ثم انحنى على (إيرهارد) الذي راح قلبه يخفق في عنف، وهو ما زال على تصوره القديم بملائكية الرجل، وأن الملاك يلقاه بالفعل الآن في عالم الواقع.. أية قداسة! :

اصبر واحتسب أي (إيرهارد) الطيب.. احتفظ بالسر، وانتظر الشفيع الأعلى، الذي حل زمانه بأرض العرب.

ثم ابتعد كحلم جميل، واضطر القائد الفارسي إلى الاحتفاظ به كأسير حرب، بدلاً من قتله، واحتمالية التعرض لوشاية زميله، في جيش من المرتزقة بطبعه، يخشون على أنفسهم طوال الوقت..

لم أكن قد سمعت من قبل عن غزو الفرس لـ (بيت المقدس)، ولكن يبدو أن الزمن القديم، قد حدثت فيه من عجائب المصائب ما لا يحصى، ومن مكاني فوق الباء الكبيرة المريحة، شاهدت القوات الفارسية تمنح المقاطعة لليهود، ثم ترجع بالغنائم

والأسرى ومواكب النصر، لعاصمة الإمبراطورية الساسانية العظيمة (تيسفون).

وفي العاصمة، ووسط فيض من الأديان ليست الزرادشتية أولها، ولا البابلية، أو المانوية، أو المندائية، أو الميرثانية، أو البوذية بآخرها، شملت عناية الرجل الصالح (إيرهارد)، فسمح الجيش الفارسي له بالاحتفاظ بدرعه تقديراً لكونه من السلافيين، الذين تحكم إحدى أهم عائلاتهم وهي (بريمسلد) منطقة (بويهايمم)، خاصة بعد أن أخفى مسيحيته، وتظاهر بالبقاء على وثنيته، ووافقوا على إرسال هذا الدرع الأسود لبلاده البعيدة، مع رسائله، وأجبروه على رعاية أحد السادة من طبقة النبلاء، كعبد أسير، مثله مثل أبطال آخرين، عرب وترك وورومان، سبق وأن دحروهم وأثبتوا قوة شاهنشاهيتهم أمام طموحهم.

كانت الرسائل عادية، لكن بينها رسم لشجرة النسب.. اعتقد مسؤول فرز البريد الفارسي، أنها شجرة نسب السلافي، وقد أرسلها لابنته كي يحفظ أصله النبيل، ولم يخطر على باله أنها شجرة من رؤيا صالحة، ظل يحفظها عن ظهر قلب لأسابيع وأسابيع، حتى خشي على نفسه وضياع السر، فقرر إيداعه الرسالة، وإرسالها مع الدرع كي يحتفظ به نسله من ابنته (ماري).



هكذا عرفت الكثير.. عرفت أن الجد الأول لم يؤخذ لـ (تبريز) مباشرة كما نقل تاريخ العائلة لـ (جان)، وعرفت كيف وصل السر له، وأنه يعلم بالفعل الشئ الكثير عن النسب المنير..

وعن التابوت.

فقد كتب (إيرهارد) في رسالته الثمينة: (العزيزة (إيفيلين).. إن هذه المشجرة مباركة، وإن التابوت الحقيقي مازال موجوداً، علمت مكانه عندما رأيته في الشجرة، أثناء الرؤيا.. لكني إذ أرسم الشجرة لحفظ السر، لا يمكنني البوح بمكان تابوت الرب.. هذا شئ عظيم، وأثقل من أن يحمله رجل واحد على كاهله، لذا فأهميته تفوق قدرتي على كتابة مكانه، لكني سأخبر الأمر لأحدهم هنا في الأسر.. لا يمكنني احتمال فكرة الموت دون إزاحة هذا الحمل عن روحي.. الرسالة تورث إلى (ماري)، وستعملين على تزويجها قبل أن ينتهي أجلك.. مثلما انتهى مصيري هنا، في هذه البلاد النارية.. فارسك وسيدك المحب (إيرهارد فون وينزل)).

لهذا رفض (جان) أن يخبرني بكل ما يعرف.. لكني الآن أعرف ما يعرفه هو، ولن يتوقف سعيي عند هذه النقطة.. لابد أن أعرف عن (حراس النار).



هكذا رأيت السلافي يتزايد ألمه بخصوص تيبس المفاصل، فباعه سيده من طبقة النبلاء لصديق له في الشمال، يعمل في الينابيع الحارة، التي يعالج فيها المرضى من شتى العلل، وكان هذا بمثابة جميل لم يتخيله (إيرهارد)، فانتقل من (تيسفون) إلى الشمال، وكانت خدمته للسيد الجديد، تيسر له العلاج في ينابيع المياه المعدنية الشافية، فصارت نهايات أيامه فيها بعض الراحة.

وفي يوم سأله سيده، وهو يأكل البطيخ الإيراني الأصفر، بينما ترمقهم ثلاثة طواويس جميلة تزين بهو القصر:

لقد مر عام يا (إيرهارد).. ونجحت الينابيع في علاجك.

إن (تبلتز) هي أخت (بويهايمم).. وينابيعها من ينابيع (بويهايمم).

أمازلت تسميها بتلك الكلمة الجرمانية.. (تبلتز) التي تعني الينابيع الحارة؟! وما معنى (بويهايمم) إذن؟

تعني عند الرومان موطن (البوي)، وهي من أوائل قبائل الكلت التي سكنت بلادي، ولكن كما حل الجرمانيون محل الكلت، حللنا نحن السلاف محل الجرمانيين، ومازلنا نعمل على طردهم منذ ثلاثين



سنة. إن تسميتي للتسهيل فقط، فالتسميات الفارسية مازالت صعبة على لساني يا مولاي.

إذن لنسهل لك لسانك ونطلقه، وكذلك نطلق أعضاءك السفلية.

قالها بخبث وهو ينظر لمنفرج ساقيه، فنظر (إيرهارد) لحجره بحيرة، وسيده يواصل:

إن (جوردافرا) عاشت مع مخدوميها في عائلة الكاهن الأكبر، والذي هو مساو للقائد الأعلى للجيوش في عظمته ونفوذه وسلطانه، وهي خير مجوسية لخير سلافي.. لنزوجك يا (إيرهارد) الطيب في عيد (النوروز) القادم.

وهكذا التقى (إيرهارد) بـ (جوردافرا) الجميلة، واستطاع تنصيرها سرًا، بعد أن عشقته ورأت صلاحه، ولكن حفاظًا على حياته وعلى السر، فإنه رفض تنصير أبنائه منها، فورث أبناؤهما الديانة المجوسية منها، بل وخدموا في (بيت النار)، أو المعبد، ولكنهم ظلوا يحفظون السر البوهيمي.. إكراماً لوالدهم الغربي العظيم، دون أن يفهموا معناه.. أو يدققوا في فحواه.. الأب يصر على أن ينقلوا مكان حفظ أحد التوابيت القديمة، لمن يليهم من أبناء وأحفاد، دون أن يعرفوا قيمة هذا التابوت، حتى أصبح الأحفاد يحتفظون بأوراق



جدهم وقصته على سبيل الأمانة. ثم انقطع نسله وورثت السر جارية عجوز، خدمت في (تبريز) بعد أن حرفت السنون اسمها، وأخلصت للسلطان (حسن الطويل)، زعيم (الخراف البيض)؛ الدولة التي بسطت إمرتها على المدينة منذ خمس سنوات سبقت سقوطها، واتخذتها عاصمة بعد العاصمة الأولى (آمد)، قبل أن تسقط في زمن (جان فون وينزل). (تبريز) عاصمة السنوات الخمس تلفظ دولة الخراف البيض، الإسلامية السنية.

عرفت أن هذا هو المسار والسرب.. لقد أفشت العجوز بالسر لسيدها السلطان، لعله يجد فيه شيئا، بعد أن شعرَت بدنو الأجل.. أجلها وأجل الإمارة في نفس الوقت.. ولما أحس السلطان بدوره بالنهاية بعد هزيمته، وانقراض سلطان دولته، حاول مساومة العثمانيين بهذا السر الباهت.. بوجود كنز تبريزي في مكان ما، وقد علم موضعه بوهيمي قديم اسمه (إيرهارد فون وينزل)، فعلم (جان) أثناء تجسسه بالمعلومة، وربطها بالسر الذي توارثه من جدته (ماري)، ابنة جده الأكبر (إيرهارد).. هذه المصادفة المهيبة، التي قلبت حياته رأساً على عقب.

لكني تعجبت: كيف انتقل التابوت نفسه لـ (زيدة) هذه؟ إن اسمها عربي.. وهؤلاء القوم فرس



وبوهيميون.. فكيف وصلها تابوت السكينة المقدس؟ وأين أخفته؟

هنا اهتز سطح الماء، وتشوشت الرؤية، وعاد قرطاس الأحرف لعاصفته، وإعصاره، حتى سقطت من فوق (ب)، ووجدتني أهب مستيقظًا من فوق الرسالة العربية في الـ (بيبليوتيكا كورفينيانا)، و(جان) ينظر لي بقلق:

هل أنت بخير؟!

نظرت إليه في دهشة:

ما الذي حدث؟!

يبدو أنك قد غفوت.

لكم من الوقت؟

مقدار هذه القراءة.

وقبض بسبابته وإبهامه على خمس أو ست ورقات، كان يطالعها في كتاب قديم، فلم ينتبه لغيبوبتي وانتقالي لعالم المثال.. يا للهول.. إن دقائق من عالمنا، عرفت فيها أحداثًا رهيبة، حدثت في شهور وأعوام. بذكاء قال:



لقد قابلته.. أليس كذلك؟

بلى.. إن كنت تقصد الدرويش.

نعم.. إن كنت تقصد بهذا اللقب أستاذك الروحي، الذي شاهدته معك على الطريق إلى (هنجاريا).. وماذا أخبرك؟

لقد جعلني أرى بأم عيني.. إن ما تعرفه ليس بالضبط ما حدث، وربما لأثر الزمن تبرير لهذه المعرفة المقتضبة التي وصلتك.. (إيرهارد) الفارس انتقل إلى (تيسفون) أولاً، وليس (تبريز)، وعومل معاملة حسنة، وليس كما تظن.. كما أن السر حفظ في نسله الأوروبي، وهم أسلافك من أحفاد (ماري) السلافية الآيرلندية، وكذلك في نسله الآسيوي من (جوردافرا) المجوسية، التي تزوجها هناك في (فارس).

اتسعت عينا (جان) في انبهار ودهش.. وقد جعل يتأملني في عمق.. ثم سألني بشك:

إن أستاذك هذا قديس يحمل الشفاعة حتمًا.. لكنني أريد أن أتأكد أكثر.. ماذا عرفت عن السر؟

إن حراس النار ورثوا معرفة المكان، لكن أسلافك ورثوا شجرة النسب، أنتم تحوزون مشجرة النسب



الصالح الحقيقية، وتعرفون بأمر التابوت، لكنكم لا تعرفون مكانه بالضبط.. وهذا ما علينا كشفه والسعي إليه.

يا إلهي.. لقد أخبرك بكل شئ إذاً.. ولكن.. كيف نكشف شيئاً حار أهل اليهودية والمسيحية بأسرهم في إيجاده، بل إن البعض يؤكد أن التابوت لو كان قد نجا من النهب الأول لـ (أورشليم)، فإنه لابد وقد سرق أثناء الغزو الفارسي الأخير.. في القرن السابع بالتقويم اليولياني.

في هذه اطمئن تماماً.. إن جدك العظيم هو من صنع نسخة مقلدة من التابوت، ظن الفُرس أنها حقيقية، لوجودها في قدس الأقداس المخرب.. لقد شاهدت هذه اللحظات بعيني، وشممت رائحة الوطاويط بأنفي، وسمعت صهيل الخيول بأذني. كاد جدك وقتذاك أن يهلك، لولا عون الرجل الصالح الذي منحه الرؤيا.

أي رجل صالح؟ لقد كان الملاك يا (سيراش).

ليكن.. أنا رأيت وحكيت ما رأيت.. لكن يتبقى (زيدة اليابسية).. كيف نتوصل لها.. إنها من سترشدني إلى التابوت الحقيقي.



مستحيل أن نتوصل لشخص من مجرد اسمه، خاصة لو لم يكن شخصية شهيرة.

رحت أفكر وأعتصر ذهني.

لابد من حل.. الدرويش ضمّن إرشاده بكل التفاصيل والرموز..

أين المفتاح..

كيف خرج التابوت؟

حاولت استرجاع رؤيا (إيرهارد)، فتذكرت شيئاً مهماً جداً..

القوس الحجري على يسار الصالح..

لا ريب أن هذا هو المفتاح. سألته بلهفة:

ماذا تعرف عن رجل اسمه (تايتوس)؟ إن له مبنى على هيئة قوس في هذه القارة العجوز.

فكر قليلا، ثم علت ملامحه تعبيرات تدل على أنه يربط بين الاسم وشئ ما، ثم اتجه إلى بعض الرفوف، وانتخب كتاباً عن أباطرة (روما) القديمة.. وبعد بعض الأبحاث قرأ:



كان إمبراطوراً رومانياً من الأسرة الفلافية، خلف والده (فسباسيان) في نهاية سبعينات القرن الأول الميلادي، وأثناء فترة حكمه كقيصر (روما)، وقعت عدة كوارث كبرى، كالطاعون الذي لم تشهد له العاصمة مثيلًا في تاريخها كله، وبركان (فيزوف) الذي ابتلع مدينة (بومبي) بأهلها وقصورها.

توقف قليلًا، ثم وجد صورة للقوس، فأشار لها وهو يقرأ لي:

ها هو.. مكتوب عليه (مجلس الشيوخ الروماني والشعب، أهدى هذا لتايتوس فسباسيان ابن فسباسيان أغسطس).. ماذا في ذلك؟

توقفت في حيرة عن لهفتي وسعادتي.. ماذا في هذا فعلًا؟! إنه مجرد مبنى روماني آخر..

جذبت منه الكتاب بنفسي، ورحت أقرأ اللغة الغريبة، التي وجدتني مدركًا لها..

لكن إدراكي كان محدوداً هذه المرة..

كما لو أنه موجه، وجدتني أفهم بعض المقاطع اللاتينية، بينما لا أفهم أجزاء أكبر، ومن ثم فطنت إلى أن الأجزاء التي فهمتها، هي المطلوب مني أن أفهمها..



لم أشعر بأن الأمر خارق، فقد كنت منذ طفولتي أتوجه فطريًا للشارع الصحيح، فلا أضل الطريق، أختار حبات التمر السليمة، بينما يقع من نصيب غيري تلك الفاسدة.. أهي كرامة ما؟

أبعدت خاطري عن الفكرة المغرورة، التي تجاهلت الصدف، وعدت لحيث أبحث.

إن هذا الرجل كان على علاقة بـ (برنيكة)، وهي ملكة يهودية !

أهو مفتاح للحل؟!

عدت أقرأ، لأجد له علاقة أكبر باليهود.. لقد كان هو المسؤول عن قمع ثورتهم، وسحق (أورشليم) وهيكل (هيرودس)..

وفجأة أصابني أزيز مباغت في رأسي. رأيت مذنباً أحمرَ في السماء، انقض بفيض مزلزل من الدمار والطنين، ونيران كنيران سقر، سحق المكتبة بمن فيها، ثم ارتطم بي، لأجدني فوقه، وعاد يرتفع ويخترق أجواز الفضاء، وراح يدور حول الأرض، وأنا أشعر ببرودة رهيبة، رغم الصخور المشتعلة تحتي، ولكن لا ألم هناك.. فقط السكينة.

هل أنا ميت؟!



****

الهيكل

(ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض، فكنز الرجل المتيبس، فحراس النار، فـ (زيدة) اليابسية، فأبنائها من سلالة النور، ثم ترتد لتفهم، وتعي أكثر. ستصل للناهب الأول).

إنه (تايتوس)، الناهب الأول كما أطلق عليه الدرويش. وهأنذا أرتد في الزمن السحيق أكثر وأكثر.

بدأت النُذر السيئة بالمذنّب.

أصابني المنظور المزدوج بالتشوش، فمن موقعي فوقه كنت أرى الأرض، وأرى (أورشليم)، وتعاسة أهلها، ولكن في نفس الوقت، كنت أراني، وأرى المذنب كأحد هؤلاء الناس. كنت فوق المذنب أرى (أورشليم)، وفوق أرض (أورشليم) أرى المذنب قادمًا في نفس الوقت.

نفضت رأسي بقوة، فتطاير المنظور الشخصي من الفضاء، وتبقى منظور البشر للسماء.. فكان منظر



المذنب هائلًا فوق (يهوذا)، أو (فلسطين) الأكثر قدمًا..

أحمر طويل، له شكل سيف لا تخطئه العين، مقبضه رأسه، ونصله ذنبه.

ضج كهنة العبرانيين به، وروعوا ترويعًا شديدًا، ونبوءاتهم تتفق على سوء المنقلب، وأنه نذير شؤم عام، ينذر بخراب الهيكل والمدينة المقدسة.

كنت بنفس المسح الذي ارتديته مصادفة في (هنجاريا) القرن الخامس عشر، فلم يشك فيّ يهود القرن الأول الميلادي..

نعم.. تحديداً سنة ثمانٍ وستين بالتقويم اليولياني..

حيث بدأت أنهار الدماء الخمسة..

النهر الأول حدث بعد انقسام المجتمع العبراني، وبدء الاغتيالات للرومان المحتلين والمتعاونين معهم من اليهود، على يد المنظمة السرية (زيلوت) أو الغيورين. رأيت في النوادي والبيوت الكل عبارة عن فريقين، الزوج ضد زوجته، الأخ ضد أخته، الوالد ضد ابنه، البائع ضد المشتري.. الكل في حزبين كبيرين.. فكان من يلقاني يسألني:



هل أنت مواطن مستقر أم من الثوار؟!

فإذا أجبته أنني من الثوار وكان من المستقرين، أو العكس بالعكس ضربني، أو قتلني، فلا أشعر بألم، لكن أنطرح أمامه ويتركني على قارعة الطريق، فأزحف حتى أتوارى.. ثم أنهض بلا سوء وأواصل طريقي..

الدرويش – أو لعله القطب – منحني قدرات هائلة، فاخترقت حجب الأزمان، وأستار الغيب، وبرئت من المرض والموت. وفهمت. وعرفت.

كل هذا كي أعرف.

كان نهر الدماء الأول بين اليهود وبعضهم البعض. المستقرون ينعتون الثوار بالمتطرفين، والثوار ينعتون المستقرين بالخونة المتخاذلين.. ومن ثم اندلعت شرارة النبذ والإقصاء، واستشرى جحيم الإبادة والتقتيل.. الثوار فاض بهم الكيل، ولما سرق الحاكم الروماني (فلوروس) بعضًا من ذهب الهيكل، متترسًا بفيالق الحامية الرومانية، غضب الشباب.. دائمًا يبدأ الشباب حفاظًا على الدين أو الوطن، ودائمًا يهرع الشيوخ والأثرياء للحفاظ على مصالحهم.. الشباب يسعون لاتقاء العبودية، والشيوخ يسعون لاتقاء الفتنة..



عرفني قادة الثوار كخادم أصم اسمه (يوشيا)، لذا فقد استطعت بصورة استثنائية نادرة، حضور الاجتماع السري، الذي شمل القادة الثلاثة الأبرز (سيمون) و(إليعازر) و(حنا بن ليفي)، في أحد البيوت الصغيرة المنعزلة شمال (أورشليم)، حيث استعلنت سيطرة الشباب، فسيطروا على نصف المدينة الشمالي بالكامل.. وبينما يعابث (سيمون) ضفائره الطويلة الممرخة بزيت الزيتون، كان يرمق (إليعازر) بشك عبر مائدة الفاكهة، والأخير يصيح في حنق أظهر أسنانه الصفراء الكبيرة:

لعنة (يهوه) على المغانم والسلطة يا (سيمون)، يا ابن الصدوقي الطيب (غيوراس)، ما قمت بهذا الحشد إلا من أجل طرد المحتلين. إن (فلوروس) لم يمد يده على كنوز هيكل الرب، إلا لأن الأثرياء والمرابين قد سمحوا له بهذا.

رد عليه بحدة:

إن الرجال من ورائي ليسوا بأقل من حشودك، وحشود (حنا) من الفريسيين، وكلمتي هنا ستكون مسموعة أو سيكون لي رد آخر.. تقسيم (يهوذا) سيبدأ من الآن بيننا.. ليس ذنبي أنني عبراني ذكي، أنظر للمستقبل، وأستعد لمشكلاته.. انظر ما حل بـ (روما) العظيمة نفسها، بعد أن تآمر مجلس الشيوخ والحرس البريتوري



على (نيرون)، وستفهم ما أعنيه.. لن أسمح بأية فرصة لنشوب حرب أهلية مستقبلية فيما بين الثوار، فيما بين المنتصرين من اليهود.

تنحنح (حنا بن ليفي) عبر أنفه الضخم المقوس، وهو يقول بصوت عميق، لانت له ملامحهما احتراماً لصيته الديني:

رويدك يا (سيمون).. يعلم رب (موسى) كم خدمت في الهيكل، وإني لما تتصارعون حوله لمتحير ومتعجب.. إن الخطر الوحيد يحيط بقدس الأقداس، وبما أخبرتكما عنه.

صببت لهم الماء المعطر بأعواد النعناع، و(إليعازر) يخفض رأسه وهو يقول بتردد:

أنت لم تسمح لنا بعد برؤية تابوت الشهادة، ولهذا شكوكنا شرعية فيما تقول يا (حنا).. أعرف أن هذا سينتهك قدسيته وأوامر الرب، التي تحرم رؤيته إلا يوم الغفران – أي مرة في السنة – ولكن الخبر عجيب ولا يصدق بسهولة، فكيف شبّه على البابليين فسرقوا نسخة مقلدة، وقد اقتحموا قدس الأقداس نفسه منذ عهد (نبوخذ نصر)؟!

لنفس السبب الذي جعل سلالتي – سلالة (الزيلوت) – تحميه حتى اليوم.. إننا وقت الاضطرابات نخفي



تابوت الرب وألواح العهد، حتى عن كهنة الهيكل أنفسهم، ونضع مكانهم نسخة مقلدة ثقيلة وقديمة، فيشبه على الغازي وينهبها.. تماما كما سنفعل قريباً.. إن النجم الأحمر والدلائل كلها تؤكد قرب خراب الهيكل، واقتراب (الماشيح) المخلص، ولو لم نسيطر على قدس الأقداس للقيام بالتبديل في الوقت المناسب، لما أصبح لوجود اليهود معنى في الزمان كله.

هبط عليهم كلامه موضع الثقل والمسئولية، فعادوا يتناقشون بقسوة أقل، وود أكبر.

ولم يبدأ عام ٦٨م إلا وبدأت ثورة الشباب بقيادة الثلاثة، فاقتصوا من الشيوخ، وقتلوا في نهر الدم الأول اثني عشر ألفاً من الحزب المستقر، شملوا كل الأثرياء تقريباً، وكان مسك الختام بالنسبة لهم، ذبح الحامية الرومانية المعسكرة في (ماسادا).

وكان الرد الفوري من الرومان وغير اليهود، أن أجروا نهر الدماء الثاني..

فقتلوا في (قيصرية) – العاصمة العسكرية – وفي (دمشق)، ثلاثين ألفاً من اليهود، وبيع آلاف آخرون كرقيق يستعبده الوثنيون.



فكان هذا إيذانًا بسريان نهر الدماء الثالث، فائر الأمواج..

إذ خرج اليهود من كل فج عميق في أنحاء الشام، ودمروا معظم المدن الرومانية، وأحرقوا بعضها عن آخرها، بينما ينتشر وسطهم الأنبياء الكذبة، فقط ليجعلوا الحياة أكثر كآبة..

ارتحلت بنفسي للتيقن من هذه الأنباء الدموية، فكانت المناظر المألوفة في المدن، أن تغطت شوارعها بجثث الآدميين العارية، وقد نهبت حتى ملابسها.. الشيوخ بجوار النساء بجوار الأطفال.. من دون دفن أو صلاة.. تركوا لجوارح الطير ومخالب السباع.. فتمتمت برثاء:

ويل.. ويل لـ (أورشليم).

ثم حلت سنة (الأباطرة الأربعة).

عاد منظور المذنب يختطفني، فشاهدت (روما) يسيل فيها نهر الدماء الرابع ساخنًا.. (كالبا)، (أوتون)، (فيتليوس)، (فسباسيان).. أربعة أباطرة تصارعوا على ملك (روما) عقب انتحار (نيرون).. فقتل الثاني الأول، وترك الرابع (يهوذا) عائداً إلى حيث يمكنه إزاحة الآخرين..

وبينما يهرع الرومان نحو (قيصرية)، قادمين من معسكراتهم في (مصر) بقيادة (تايتوس)، لتأديب اليهود والسيطرة على ثورتهم، كان (حنا بن ليفي) يرسل لرجاله من الفريسيين للقيام بواجبهم التاريخي..

استبدال تابوت العهد..

وفي ليلة التبديل، هبت ريح البلبلة، إذ انفتح الباب الشرقي الثقيل للهيكل، والمصنوع من النحاس المتين، الذي لا يمكن لعشرين رجلاً إغلاقه إلا بصعوبة.. انفتح من تلقاء نفسه.. بنعومة وهدوء مخيفين.. وانساب الهواء المسمم الناعم، فاختلت عقول رجال (حنا بن ليفي)، وحملوا النسخة المقلدة بدلاً من التابوت الحقيقي، معتقدين أنه تابوت الشهادة، وراحوا يفرون به في الظلام عبر الباب الغربي، ليخبئوه في جبل (الجليل).. وتصلب بعض الكهنة مشدوهين أمام منظر الباب وهو ينفتح، غير مدركين لما يجري في الغرب، وسجل بعضهم الحادث الغريب ليخلده التاريخ حتى يومنا، وإن كنت لم أقرأ عنه قبلاً ولم أعرفه إلا الليلة.. بعينيّ هاتين.

لا أعرف سبب هذه الريح، ولكني أعرف أن التابوت الأصلي هو ما بقى.

وعندما بدأ الحصار في العام التالي ربيع سنة ٧٠ ميلادية، عقب عيد الفصح مباشرة، بدأ نهر الدماء الخامس يكتسح كل شئ كالفيضان.

****

" فياويل (إيليا) وسكانها، كيف أذللهم للقتل، وأسلط عليهم الأسر، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخًا، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرفات القصور مساكن السباع؛ ولأدوسنهم بألوان العذاب، ثم لآمرن السماء فتكون طبقًا من حديد، والأرض سبيكة من نحاس، فإن أمطرت لم تنبت الأرض، وإن تنبت شيئًا خلال ذلك فبرحمتي للبهائم، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئًا سلطت عليه الآفة، فإن خلص منه شئ نزعت منه البركة، فإن دعوا لم أجبهم، وإن سألوا لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم " – وحي لنبي اللّه (أرميا). رواه ابن عساكر

****

بعد أيام طويلة من الحصار الكامل، كان القائد الروماني يصلب فيها يوميًا مئات اليهود، حتى كاد مخزونه من الصلبان الخشبية أن ينفد، بدأ اليهود من حزب المستقرين في الانضمام للثوار وقد شعروا بأنه يوم القيامة؛ وبينما أقف وسط الأسرى،



شاهدت بعض المقاتلين اليهود يندفعون بين صفوف الجنود الرومان، بعد عبورهم وادي (قدرون) الفاصل، عقب انتشار المجاعة ونفاد مؤونتهم، فقرروا ترك الهيكل ليذهب إلى الجحيم، مقابل كسرة خبز أو شربة ماء. واندس بينهم المرابون. شاهدت بنفسي بعضهم يبتلع قطع الذهب ليفلت بها، ممنياً نفسه بحياة جديدة. ولكن (تايتوس).. ذا الشعر القصير وقد تناثرت فيه شعيرات بيضاء، تدل على بدايات عقده الأربعيني، أصدر أوامره باللارحمة:

لو أفلت منكم يهودي واحد، سأقطع من كل جندي فيكم إصبعاً.. ولو أفلت يهوديان، سأقطع من كل جندي فيكم أذنين.

وهكذا بدأت المذابح الرهيبة.

ولما كان شرط نجاتي الوحيد هو إرشادي عن اليهود، فقد أسرعت أبلغ عما رأيته من تهريبهم للمال بلعاً، فقبض الرومان والسوريون على كل الهاربين، الذين استغلوا الإفراج عن الغرباء ممن حضروا عيد الفصح، وبقروا بطونهم بعد تأكدهم من يهوديتهم وختانهم، وبحثوا حتى بين برازهم عن الذهب المهرب.. فكانت المناظر بشعة لأقصى حد.



ثم أمر (تايتوس) فرق الحراقين بإضرام النار في الهيكل، الذي أعاد الملك الأدومي القديم (هيرودس) بناءه قبل الميلاد، فأشعلت الفرق مشاعلها بعد أن توغلت القوات في المدينة في شهر (يوليو)، وحاول رجال (حنا بن ليفي) منع الكارثة، ولكن الرومان كانوا أكثر إصرارًا وتنظيماً، وقد أحنقهم انتصار اليهود عليهم سابقًا في معركة (بيت هارون)، وقتلهم زملاءهم في أكثر من حامية وقلعة، وطمعوا في كنوز الهيكل الذهبية.

الهيكل الذي عاصر زمن (يحيى) و(عيسى) عليهما السلام.

****

" فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وقعدوا على الشرف " – حديث شريف

****

ولما رأى اليهود النار تشق عنان السماء، وهيكلهم المقدس يتصدع، أطلقوا صرخة جامعة عظيمة..

صراخ هيستيري..



حتى أن بعضهم قد ألقى بنفسه في لهب الهيكل، لعله يطفئه بجسده.. وألقى من كانوا يحتمون فوق سطحه بأنفسهم فوق نصال سيوفهم، وقد تساوت أمامهم نهاية العالم ونهاية حيواتهم..

وارتجف الجنود الرومان أمام جنون اليهود، ولكن هذا أثارهم أكثر، فأطلقوا أبواق النصر، وضحكات الاحتفال والشماتة، فاختلطت الصرخات بالضحكات في مشهد رهيب، ورددتها الجبال المحيطة على نحو درامي مرعب..

****

"ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش، فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها " – (لوقا ٢١: ٢٠)

****

اندفع القادة الفرعيون مع كتيبة متخصصة من الجنود، ونهبوا قدس الأقداس سالمًا، ثم خرجوا، وطرحوا كتلة نارية عبر البوابة الذهبية، حتى هدموا الهيكل والمدينة بشكل شبه كامل، فيما عدا ثلاثة أبراج من قصر (هيرودس)، وجزءاً من الحائط الغربي البائس، الذي عرفت أنه ما سيسمى فيما بعد عند اليهود بحائط (المبكَى)، وعند



المسلمين بحائط (البُراق).. كآثار للأجيال القادمة تذكر بقوة المدينة المقهورة، وعظمة القاهرين.

ولما انهار الهيكل في شهر أغسطس، ولفّت النار التل المبني عليه، بينما أنهار الدماء تصنع البرك أسفله، أطلق اليهود المتبقون صرخة مفزعة حتى بالنسبة لي..

كان هذا بالنسبة لهم، كهدم (الكعبة) لدينا، أو هدم (الفاتيكان) عند المسيحيين..

كان مريرًا. مُذلًا.

وارتفعت شعلة اللهب تضئ سماء الليل، بينما عويل اليهود كزئير يصم الآذان.

****

أبناء التنين

عاد لي منظور المذنب النذير، فشاهدت مواكب النصر في (روما)، يتقدمها (تايتوس) ووالده (فسباسيان)، وهي تجر سبعمائة أسير يهودي تبدو عليهم البدانة والصحة، وقد اختيروا من أشرافهم وأقواهم أبدانًا إمعانًا في إذلال شعبهم.. تخلى عني منظر المذنب بمجرد أن شاهدتني



فيهم، أرسف في أغلال القهر؛ وكانت وجهة المواكب معبد (جوبيتر) كبير الآلهة، وهتافات الجماهير الغفيرة، تغلف أكاليل النصر، وتتردد في آذان الجنود، المتبخترين في ملابسهم الاحتفالية الجميلة، وعيناي تحاولان الوصول للغنائم، حتى شاهدتها..

عرّفني وحي ما أنها مائدة خبز الوجوه، والمنارة الذهبية ذات الأسرجة السبعة، والأبواق التي كانت تعلن بدء سنة اليوبيل، والمجامر الكهنوتية، وبعض أدراج الناموس..

بدون التابوت..

وسألت أقرب جندي روماني لي في احترام:

أين بقية كنوز الهيكل يا سيدي؟

اطمئن أيها اليهودي المسكين.. لقد احتفظ الإمبراطور (فسباسيان) بالستائر الأرجوانية الخاصة بالهيكل، وكتب الناموس، واحتفظ القائد (تايتوس) ابنه بنسخة التابوت المقلدة.

كنت أعرف أنها ليست مقلدة.. لقد رأيت البوابة النحاسية تنفتح.. ورأيت رجال (حنا بن ليفي) يرتبكون.. ويتركون الأصل.. ويخبئون الصورة..



كنت أعرف..

وفجأة، عاد منظور المذنب الأحمر.. ورأيتني أندفع فوقه نحو أغوار الفضاء..

(روما) تبتعد..

أوروبة تذوي..

الأرض كلها تبتعد..

تصغر..

حتى شمسنا نفسها تصغر وتتضاءل..

يا إلهي..!

الشمس تصبح مجرد نجمة صغيرة، بين ألوف النجمات الأخريات..

نجوم بالملايين، تتقارب، وتجمعها سحابة من النجوم والكواكب الأخرى..

ثم تصغر السحابة..

وتبتعد، وسط سحب من النجوم المليونية..



سحب مكونة كتلة غبارية ضخمة..

تبتعد بدورها لتصبح كتلة ضمن ملايين الكتل الأخرى..

يا إلهي !

يا إلهي ! ما أعظمك وأرحمك !

ثم إن التسارع والتباعد والتقارب يتوقف..

ويسود الصمت..

لا بل هي موسيقى الصمت..

تشملني السكينة، ويطمئن الهدوء بي، وأنعس في أحضان التأمل.. للحظات..

قبل أن أعود فأنسحب بسرعة مذهلة، وتمر بي الكواكب والنجوم والسدم، حتى أجدني على ظهري أنتفض في المكتبة.. والتلاميذ والباحثون من حولي متجمهرون، حتى رأيت وجه (جان) القلق، فقلت له وأنا أحاول الاعتدال معتمداً على يده:

أنا بخير.. أنا بخير.



ابتعد القرّاء، والذكريات والرموز تنهمر في ذهني المهتاج.. المحتاج. كل الرموز وكل الكلمات. فجأة سألته:

لماذا صرخ القرويون قائلين (الوَندال)، عندما داهمَنا قاطعو الطرق؟

لا أعرف يا (سيراش).. لكنهم ليسوا الوندال بالتأكيد.. ربما فقط يستدعون مخاوف آبائهم وأجدادهم من هذه القبائل الجرمانية الشرقية، التي أذاقتهم الويل قديماً.

أشعر أن هذا الهتاف له علاقة ببقية المسار.

وما هي هذه البقية؟

(ستفهم، وستعي. ستبدأ الاستشفاف بأمين المكتبة، بالخراف البيض، فكنز الرجل المتيبس، فحراس النار، فـ (زيدة) اليابسية، فأبنائها من سلالة النور، ثم ترتد لتفهم، وتعي أكثر. ستصل للناهب الأول، ثم أبناء التنين).

إذا كان (تايتوس) هو الناهب الأول، فلابد وأن أبناء التنين هؤلاء تشير لرمز قَبَلي ما.. هناك مخطوطة هنا عن شعارات القبائل الجرمانية.. انتظر.. ها قد وجدتها.



وبحث بعينيه بسرعة، حتى قال بتعجب:

لا يحق لي الدهشة بعد هذا من قديسك العظيم.. إن الوندال هم حتماً أبناء التنين هؤلاء. انظر إلى شعارهم.

طالعت الشعار، فإذا به تنين مجنح لونه أصفر، ينظر جهة اليسار، على خلفية حمراء اللون.. شعار الوندال:

إذاً فهذا هو المسار.

كيف يا (سيراش)؟ هل تجد علاقة بين (إيرهارد فون وينزل) والوندال؟

إن البعض يعتقد أن التابوت قد نهب على يد الفرس، ولكني وكما رأيت بنفسي أن ما أخذوه نسخة مقلدة صنعها جدك الأكبر، فقد رأيت خراب (أورشليم) والهيكل، ونهب الرومان للتابوت الحقيقي.. ولابد أن للوندال علاقة بالرومان حتى ينتقل التابوت لهم.

عدنا نبحث ونقرأ، أنا في تاريخ (روما)، وهو في تاريخ الوندال، حتى توصلنا للحقيقة الصادمة..

والمفاجأة المذهلة: لقد قام الوندال تحت قيادة ملكهم العظيم (جيسريك) بغزو (روما)، ونهبها سنة ٤٥٥م.

كان الخبر صاعقًا، ولكنه حقيقي، ينقله التاريخ بهدوء، بدون ضجة كافية.. وكما كان المجوس والخراف البيض، كان الوندال أيضًا موحدين يتبعون العقيدة الأريانية، التي تخالف بقية المذاهب المسيحية في عقيدة التثليث. ولكن تبقت نقطة عسيرة.. ما علاقة الوندال بـ (زيدة اليابسية المجهولة هذه؟

وهنا أمسك الدرويش بيدي، وجذبني، فتحركت معه بسلاسة عجيبة، رغم مفاجأة ظهوره المباغت، كما لو أنني قد اشتقت له. لكن ما أثار ذهولي، أنني رأيتني أجلس شاردًا أمام (جان)..

أتحرك، وأرى شخصًا يشبهني يجلس في نفس الوقت.. هو أنا !

إذن من الذي تحرك مع الدرويش؟!

أهي روحي؟!

كانت الإجابة مخيفة، ولكن الدرويش غاص بي وسط ضباب أنسانيها، لأجدنا في جزيرة صخرية في



غرب البحر المتوسط، انزلقت فوق إحدى صخورها التي تبللها الأمواج بلا توقف، صانعة فوقها طبقة ناعمة من الطحالب، فاستندت بكفي بسرعة حتى لا أسقط، ولكن الصخرة الحادة كالخناجر التي حاولت الاعتماد عليها، جرحت كفي جرحًا طويلًا، لم يؤلمني رغم منظره المخيف.. سألته بقلق:

كل هذا حدث لـ (أورشليم)؟

وأكثر.

المسلمون على الأقل حافظوا على المسجد الأقصى.

إنها مجرد قبلة منسوخة.

ماذا تقول يا رجل ! إن مسجد قبة الصخرة الرائع هو عنوان للإسلام، وحضارته، وعمارته.

بل عنوان للعبة السياسة !

لا تقل لي إن الصخرة المشرفة خدعة ؟! صرت أتوقع المصائب منك دومًا.

لا توجد صخور شريفة في هذا العالم، و(عبد الملك بن مروان) تسبب في هدم الكعبة، وبنى مسجده هذا كي يحج الناس إليه بدلاً منها، وذلك لسبب



سياسي في المقام الأول، وهو عداوته لـ (عبد اللّه بن الزبير). وقد فعل الناس ما أراد للغرابة؛ طافوا بصخرتك المشرفة هذه، وحلقوا، وضحوا يوم عرفات، بدلاً من أن يحجوا إلى (مكة) المكرمة.

دعنا من (فلسطين) كلها الآن. هذا يربكني ويدمر ثقتي في التاريخ. أين نحن باللّه عليك؟

إنها جزيرة (يابسة).

موطن (زيدة)؟

بل موطن أم جدها.. التي استقرت في الجزيرة في نهاية القرن الثالث الهجري، وأوائل القرن العاشر الميلادي، بعد عشر سنوات من فتح مسلمي الأندلس لجزر (البَليار). في هذا الوقت يا (سراج) أصبح نفوذ المسلمين يمتد في جنوب (فرانسا)، من مقاطعة (بروفانس) إلى (لانجدوك) غربًا، وإلى مشارف الأراضي السويسرية شمالًا، ثم إلى الأطراف الغربية من (إيطاليا) شرقًا، وبذلك تحكموا في معظم ممرات جبال (الألب)، وسيطروا على طرق الاتصال بين (فرانسا) و(إيطاليا) لعشرات السنين، إلى درجة أن رئيس أساقفة مدينة (أربونة)، لم يستطع السفر إلى (روما) عام ٩١١م !

عجبًا ! لماذا لا يدرّسون لنا هذه الفتوحات؟



ربما لأن الفتح عند قوم الفاتحين، يعد غزواً واحتلالًا عند المقهورين.

هل يعني هذا أن الفتح العربي لـ (مصر)، كان غزواً واحتلالًا؟!

أمر نسبي.

أدرت بصري في صخور الجزيرة الصغيرة، ومدينتها القديمة على قمتها:

إذن فهؤلاء الوَندال تركوا التابوت هنا، وحصلت عليه جدة (زيدة) التي ذكرتها.

لقد سيطر الوندال على الجزر ضمن سواحل غرب البحر المتوسط، ومن اسمهم اشتقت (واندالوسيا) ثم (الأندلس)، وزينت بعض غنائمهم قلاع ملوكهم، ولكن سرعان ما زال ملكهم كعادة التاريخ، فانتقلت هذه القلاع للمحتلين البيزنطيين، ثم المسلمين، فحصلت (زيدة) على السر ذاته الذي وصل لـ (جان)، والذي اجتهدت أنت لمعرفته، مضافًا إلى مكان التابوت الحقيقي بداخل جزيرة (يابسة)، وذلك بعد أن قابلتها إحدى العرافات من أحفاد (جوردافرا) المجوسية التي رأيتها، ومنحتها الورقة التي خطها ورسمها (إيرهارد)، متنبئًا بميلاد (زيدة) ومحدداً نسبها بدقة، بينما تشرح لها أهمية



التابوت؛ ولولا هذا الشرح، ربما ما وجدت (زيدة) في نفسها حاجة لتوريث السر، بعد أن اكتشفت التابوت بالصدفة في أعماق قلعة (يابسة). إن المجوس قد أسلم معظمهم بعد الفتح الاسلامي لـ (فارس)، وانتقلوا في أسفارهم للغرب.. حيث الامبراطورية الإسلامية الشاسعة، ولهذا فكل موقف وهمسة على مدار الزمن، لها أهميتها القصوى.. فلو ظل المجوس على الزرادشتية، ربما ما انتقلت العرافة للغرب، وما التقت (زيدة) في شرخ شبابها، ومنحتها شجرة النور، وهمست في أذنها بالسر.

ولماذا (زيدة)؟ أهي من الأولياء؟ لقد شاهدت الخيط الفيروزي الواصل بينها، وبين جوهرة آخر الأنبياء في شجرة الرؤيا والنور، جوهرة النبي الأمي عليه الصلاة والسلام.. إذاً فهذا هو السبب.. نسبها الهاشمي.

ليس شرطًا.. فمن نسل (زائدة الأندلسية)، جاء من لن تصدق أنهم حازوا نفس السر، رغم هاشميتهم.

مثل من؟

فجأة وجدتني أنظر لوجه (جان)، وتبدلت جغرافية الجزيرة في لمح البصر، و(جان) يرفع رأسه عن كتاب



القبائل الجرمانية الذي يطالعه، وهو يسألني:

معذرة.. ماذا قلت؟

تأملت الـ (بيبليوتيكا كورفينيانا) بدون دهشة أو مزيد من الذهول هذه المرة، وكأن هذه التنقلات الروحية قد صارت جزءاً من حياتي مؤخرًا. كأن الغفوات والشرود هم سبيلي الوحيد للإفاقة والعلم. من يصدق أن بين جدران هذه المكتبة، شاهدت كل هذه الأسرار والرحلات المبهرة. قلت له بعد هنيهة:

كنت أريد أن أسألك يا صديقي: ما هو نسب (زيدة اليابسية)؟

هل تقترح أن نبدأ البحث عن هذا الاسم، رغم احتمالية أن يكون لامرأة مجهولة؟

تذكرت آخر صيغة نطق بها الدرويش اسمها، فقلت له بحماسي القديم:

لنبحث عنها باسم (زائدة الأندلسية).

سرى إليه حماسي كالعدوى، فرحنا كالمحمومين نبحث في الأنساب العربية، خاصة القريبة من الأندلس أو (يابسة)، حتى عثرنا عليها..



وعندما دققت النظر في مشجرة نسلها، اتسعت عيناي في دهشة..

كانت هناك قطرة عرق قد سقطت من فوق جبيني المجهد، فانسابت فوق الصفحة بشكل غريب، إذ لم تفسدها أولاً، ثم إنها كانت تتلوى صعوداً وهبوطًا كأنما ترسم مسارًا بعينه، وقد تملكتها حياة خاصة بها، مسار عندما تتبعته أيقنت أنه لابد وأن يكون مسار ورثة السر البوهيمي:

هل هذه النقطة ترسم مسارًا، أم أنها مصابة بمس شيطاني يا (سيراش)؟!

كل شئ رأيته منذ بدأ هذا الأمر وهذه المطالعة، مثير وعجيب ومخيف، ويحتمل كل شئ.. الملائكية والشيطانية.. ولكن لا يمكنني التراجع أمام المعرفة.. علينا أن نجذب الخيط لنهايته وليكن ما يكون.

ولكن كيف يمكن لهذه الهاشمية أن تنجب هؤلاء.. هذا غريب لأقصى حد.. ومثير لكل أنواع الشكوك.

كانت (زيدة) المسكينة قد عانت حسب قصتها من هجوم (يوسف بن تاشفين) أمير (المرابطين)، ورغم كونها زوجة (الفتح بن المعتمد بن عباد) والي (إشبيلية) و(قرطبة)، وابن آخر ملوك (بني عبّاد)، إلا

أنها صارت هدفًا، وهي ترى المسلمين يقتل بعضهم بعضًا بلا رحمة، وينقسمون بلا توقف، حتى الخلافة نفسها منقسمة بين عباسية وفاطمية، سنة وشيعة؛ فلما قضى (ابن تاشفين) على (ملوك الطوائف) في أنحاء (الأندلس)، وقطع رجاله رأس زوجها في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وطافوا به على رأس رمح، فرت إلى آخر أمل لها هي وأطفالها وخدمها، وهي (قشتالة) نفسها، مملكة الفرنجة في نهايات القرن الثاني عشر الميلادي..

وهناك لم يتخذها الملك القشتالي (ألفونسو السادس) جارية وعشيقة، إلا بعد تنصرها تحت اسم (إيزابيل)، هي وأبنائها وخدمها. وبدون سابق إنذار، انشق سقف المكتبة عن أمطار كالسيول، فرفعت رأسي أنظر ما هناك، فوجدت وجه (زيدة)، وقد غطته مياه الأمطار..

كلا.. إنها قطرات الدموع..

رباه.. إنني في حضرتها..

حضرة وريثة سر الوندال..

* * * * * * *



زيدة

كانت رقيقة وهي ترنو بعينيها الواسعتين الطيبتين، رقيقة وهي تحيط بيديها وأصابعها طفلتها كدائرة من النعيم، رقيقة وهي تهدهد طفلتها الرضيعة، وتقول لها من بين دموعها:

إن كان هذا الشئ بهذه القداسة، فلماذا يتركنا اللّه يا بنيتي؟! لماذا يسمح لهم بتغيير تعبدي له من دينه العربي، إلى دينه السرياني؟ لقد دفنته هناك.. في أرض مباركة، لم أجد أكثر منها ذكرًا في القرآن، ولكن البلايا ما انفكّت تحاصرنا منذ فعلت. رزئت أمك بكافة الرزايا، فقتل أبوك، وفقدنا ملكنا، والآن ديننا، وربما شرفنا. إن أمك ليست مرتدة يا طفلتي الغافية، يا لجمال عينيك ! إن أمك ليست عاهرة يا طفلتي المنمنمة، يا لنعومة شعرك ! إن أمك تحبك.. أنت وأشقاءك.. لهذا فرت.. وستفر حتى آخر الزمان من أجلكم. إن أمك ليست ملطخة، ولن يجبرها القشتاليون على الشعور بالعار والخزي.

وبعد سنين، كانت (زيدة الإشبيلية) قد هرمت، ولكنها مازالت توصي ابنتها (تيريزا)، التي صارت فتاة رشيقة القد، جميلة الضفائر، متوردة البشرة:

لا حاجة بك يا ابنتي إلى معرفة النصف الأول من السر، وهو مكان التابوت المقدس، يكفيك أن



تعلمي مكانه بشكل غير تفصيلي، ولكنك ستحتفظين بالنصف الثاني كاملًا.. وستورثينه.. إنها شجرة الضياء والنسب الشريف.. إنهم الصالحون على رأس كل أزمنة العالم. لا تنسي ما فعله القشتاليون بأمك، اتخذي المسيحية دينًا، لكن تذكري ما فعله المسيحيون بأمك.. بل وبكل الموروسكيين.. يا لمعاناتي.. يا لشقائي. أشعر باقتراب النهاية، تذكري أمك.. (زيدة اليابسية).. أو حتى (إيزابيل القشتالية).. لا تهم الأسماء، طالما أنها تشير لذات الروح.. والعينين.

ثم ماتت (زائدة) أو (إيزابيل).

انهمرت الأمطار غزيرة أثناء دفنها على الطريقة القشتالية المسيحية، فرحل الجميع، وبقيت وحدي تسيل عبراتي، فتختلط بمياه المطر، أبكيها وأسترحم السماء عليها.

وعندما بدأ حسابها، تطايرت تلك الورقة الكبيرة، المغلفة بالجلد والشمع، والمربوطة بإحكام..

تتبعتها بنظري لسنوات، حتى وجدت كونتيسة (البرتغال) تفضها، وتتذكر في شغف وحنين..

عندما دققت نظري في الورقة، شاهدت مسارًا مميزًا وسط غصون الشجرة الكثيفة، يخص نسب



(زيدة)، وقد تم تعليمه، وإضافة الحواشي له. نفس المسار الذي اتخذته قطرة عرقي الحية، مما يؤكد صحته التامة. تعرفت في الخط لغة العرافة حفيدة المجوسية، وقد بينَت لـ (زيدة) ورثتها من حاملي وحاملات السر، وكتبت رموزاً مجهولة وألقاباً غامضة بجوار كل اسم، تبدأ كالتالي: الملكة الأولى، البرتقالي، الشجاع، ملك اليهود، الزوجة الثانية، ثم بعد انحراف إلى أعلى الدوق الأول، سيدة البلاطين، ثم بعد انحراف إلى اليسار المستردِة، المجنونة، الناهب الثاني، ابن الهنجارية، الورع، ثم بعد انحراف إلى اليمين ملك الشمس، ثم بعد انحراف حاد إلى أسفل فينوس.

من هؤلاء؟ لا يمكن أن أعرفهم بدون تبصرة من الدرويش..

وعندما دققت في ملامح كونتيسة (البرتغال) هذه، وأول من اطلع على السر من بعد (زيدة)، تعرفت إليها، إنها (تيريزا) ابنتها من (ألفونسو السادس)، وقد صارت ملكة عظيمة، تلاعب أبوها بأصلها غير الشرعي لاتقاء التعريض بها وتشويه سمعتها، فنسبها لغير (زيدة) المسكينة، المغلوبة على أمرها.. والآن صارت (تيريزا) ملكة (البرتغال).. بل أول ملوك وملكات (البرتغال) على الإطلاق.. أي (الملكة الأولى). الألقاب الغامضة تبدأ في الكشف عن معانيها..



ولكنها ورثت حقد أمها الحزين، وحولته لحقد متأجج، هائج مائج، سيطر على نزعتها المسالمة القديمة، ودفعها لمحاربة أختها كي ترث أراضي والدها كابنة شرعية..

فتطايرت الورقة أثناء الحرب، ووقعت في يد ابنها، (ألفونسو الأول) بالقرن الثاني عشر.. وعرفت سر لقبه كما كتبت العرافة، فهو يسمى في الروايات العربية بـ (البرتقالي)، ويطلق عليه البرتغاليون لقب (الفاتح) أو (العظيم)..

وانفلتت منه الورقة، فحاول مطاردتها، ولكن السنين تغلبت على حفظه للسر، وعاقبته على عدم فهمه له، فورثته لأحد أحفاد سلالته الملوكية بالقرن الرابع عشر، وهو (ألفونسو الرابع) ملك (البرتغال) والغرب، الملقب بـ (الشجاع)، ولكنه عندما راجع ميراثه من أجداده، تأمل الورقة بعدم اهتمام، وأعادها للخزائن..

فانتقل النسب الشريف لحفيده (بدرو) ملك (قشتالة)، من ابنته (ماريا) البرتغالية ملكة (قشتالة) و(ليون)، والملقب بـ (القاسي).. ولكن القاسي لم يعبأ بأمر النسب، واعتبره خزعبلات قديمة، فمنحه لابنته (كونستانس). حاولْت فهم علاقته باللقب التالي لـ (الشجاع)، حتى عرفت للغرابة أن شقيقه (هنري) كان يلقبه بـ (ملك

اليهود)، لتحريضه على قتل أو ترحيل اليهود قسراً من (قشتالة).

(كونستانس) أعادت الكرّة، وسقت نسلها من كأس (زيدة)، وقد فهمت أمومتها ومعاناتها، وغربتها عن الوطن والدين، وكانت أكثر تقبلًا لأسطورة النسب الصالح. كانت زوجة ثانية – بالفعل وليس مجرد لقب – لدوق (لانكاستر) الأول، ولكنها كانت تعشقه، فمنحته السر ليصبح جزءاً من ميراثه، يحرص على توريثه لأحفاده حتى مجئ الدينونة..

وفجأة انتهى انهمار أمطار المكتبة، وانغلق السقف، فوجدت (جان) ينظر لي بتساؤل:

هل رأيته ثانية؟

نعم.. وقد أطلعني على بداية نسب (زائدة الأندلسية)، لديك كل الحق في تعجبك السابق.. الأمر فوق مستوى الفهم والتصديق بحق، ومن ورثوا شجرة النور، وسر أبناء التنين.. أو السر البوهيمي، لا يمكن لأحد أن يتصورهم.. لقد تنقل السر بين ملوك (الأندلس)، حتى شاهدته يصل لدوق (لانكاستر) الأول.. أي أنه سيبدأ في رحلته بين جنبات قصور ملوك (إنجلترا) بعد ملوك (إسبانيا) !



انتابه الحماس الذي شملني، فبدأنا نستخرج سلالة أسرة (لانكاستر)، وقد تيقن (جان) مثلي من صدق ألقاب ورثة السر من نسب (زيدة)، فـ (جون غونت) هو (الدوق الأول)، لذا فكان طبيعيا أن نضع أيدينا على (سيدة البلاطين)، وكانت (فيلبا لانكاستر) ابنة الدوق الأول، سليلة العائلة الملكية الإنجليزية، وزوجة ملك (البرتغال) (جواو الأول).. فلا ريب أنها كانت ذات نفوذ قوي في البلاطين الإنجليزي والبرتغالي، ويا للعجب أن جاء من أحفاد (زيدة اليابسية)، الأميرة المطاردة التي فقدت كل شئ، تلك الملكة القوية والسيدة العظيمة (فيلبا لانكاستر). قال (جان):

ماذا كانت بقية الألقاب؟

إن ذاكرتي تحضرني بشدة كلما تعلق أمر بكرامات الدرويش.. فلعلها كرامة أخرى.. الألقاب الغريبة كانت: (الملكة الأولى، البرتقالي، الشجاع، ملك اليهود، الزوجة الثانية، الدوق الأول، سيدة البلاطين، المستردّة، المجنونة، الناهب الثاني، ابن الهنجارية، الورع، ملك الشمس، فينوس) مع بعض الانحرافات المفاجئة، التي تدل على تغير المكان أو السلالة، لكن فارق السنوات قد يكون كبيرًا بين كل لقب وآخر، لأن الورثة بينهما ربما أهملوا السر أو لم يفهموه، وبما أننا وصلنا لما بعد (سيدة البلاطين)،



فلابد أن (المستردّة) توجد في أيامنا هذه.. القرن الخامس عشر.

إن كان اللقب يتعلق بحروب الاسترداد الجارية الآن في (الأندلس)، فيصعب تحديد اسم هذه الملكة أو القائدة.. هناك عدة نبيلات وملكات في ممالك غرب (أوروبة)، قد تصبح أي منهن في أي وقت محاربة ضمن حروب الاسترداد.

قد يدركنا الدرويش.

انتظرنا ساعة دون أن نتوصل لشئ، أو نرى كرامة، فقررنا المغادرة، ومواصلة طريقنا الأول إلى (بوهيميا)، وقد أخطأنا المطاردون لا ريب، بعد أن جئنا هنا إلى (هنجاريا). كان الطقس متقلباً، ولكننا استطعنا العثور على عدة قرى وأماكن للمبيت في الأيام التالية، ولم يزرني الدرويش مطلقًا، أو تنتبني أية رؤى أو أحلام ولو مرة واحدة، على مدار أربعة أيام كاملة، حتى وصلنا إلى وطنه، وقريته في الغرب، بالقرب من جبال (الخام).. بعد أن قمنا بدورة واسعة جنوبًا وشرقًا، ثم عودة إلى الغرب من جديد.

كانت ابنته الكبرى شابة يافعة، وقد أنجبها في عمر مبكر لا ريب، واشتملت ضيعته على قصره، وإسطبل كبير، وبعض من مساكن الفلاحين،

وعندما علق درعه في مكانه المفضل، وجدت أنه يحيطه برعاية كبيرة، تصل حد القداسة، خاصة بعد ما ورثه، وكل ما مررنا به. وبعد الراحة، عدنا لحديثنا الشيق:

ولكن كيف وصل السر لـ (الخراف البيض)؟ هل اكتفى بالتوريث الصامت؟

هل سمعت عن (شمس التبريزي)؟

أعتقد أنه أحد شيوخ مولانا (جلال الدين الرومي).

بل هو معلمه وصديقه وشقيق روحه الوحيد.. وهو من (تبريز)، وقد علمت أثناء بحثي الخاص أنه قد ورث السر.. أنت بمفردك أخبرتني بعشرات الأسماء والأقوام، وسلاسل التوريث، عبر قديسك وشفاعاته المذهلة، وأنا طوال عمري لم أضع يدي إلا على دليل واحد، يشير لعثور (شمس) على هذا السر.. والذي أورثه شطحات عجيبة، جعلت الكل يطلق عليه لقب (المجنون).. تماماً مثلما رأيت أنت، لكن عقلك احتمل الأعاجيب بصمود كبير.

حتى الآن.. ولكن كيف توصلت لـ (شمس التبريزي)؟

لأنه الوحيد المكتوب اسمه في شجرة النور من (تبريز).. لقد كان صالح زمانه منذ مائتي عام. هكذا



عندما وصل السر للخادمة المجوسية الأصل، وحاول (حسن الطويل) معرفة فحواه، داهمته الخطوب، فلم يعرف إلا بوجود كنز في (تبريز)، دون أن يعرف نوعه، وعندما حاول مساومة العثمانيين عليه، ضمن محاولاته اليائسة الكثيرة، للنجاة بنفسه وأمواله، سمعت السر على لسان جندي تركي بسيط؛ وعندما انكشف أمري هربت، ثم التقيتك، فرأيت معك ما أكد لي أنني لم أكن كجاسوس في طريقي الصحيح، وأن طريقي الصحيح هو فهم السر.. هو الصلاح.

استعرض معي نظام العمل في أرضه، ثم جعلني أرى أهم ما ورثه أسلافه من جده الأكبر، وكانت عملة الشيكل القديمة المتآكلة، التي حصل عليها (إيرهارد) كمقابل لنسخة التابوت المقلدة، ويُعتقد أنها من كنوز قدس أقداس الهيكل الأصلية النادرة..

وعندما لمستها، سقطت فوقها بصورة غرائبية مذهلة..

نعم سقط جسدي فوقها بغتة، لكن لم يخرج عن حوافها !

وجدت أن حجمها صار هائلا، كقاعة معدنية واسعة، وأنني أعتدل جالسًا في منتصفها، بينما يسير

الدرويش على سطحها الذهبي مقتربًا، والموجودات تبدو من خلفه هائلة، وكأننا نحن من انضغطنا وصغر حجمنا مئات المرات:

ما اسمك؟

– لقد بدأت تلقي الأسئلة الصحيحة أخيرًا يا (سراج)، يبدو أن ما مر بك لم يكن سهلًا.. أنا (عبد اللّه)، أحد الأبدال السبعة[٨] .

هل الأبدال حقيقة؟

كثير من الحقائق هي مجرد فراغ، وكثير من المهملات هي حقائق كبرى.

كيف تفعل كل هذا؟ أعني كيف بدأ سبيلك لتصل لهذه الفتوح؟

الوصول لمقام القطبية لا يتحقق بسهولة.. وهو بحاجة للرياضة، والزهد، والذكر، والمجاهدة، والمشاهدات. قطب زمانك وزماني طلب مني الاستعانة بك، لتتبع السر البوهيمي.. بهذا أصل لمبتغاي، وأكون أحد وزيريه، (عبد ربه) عن يمينه، أو (عبد الملك) عن يساره، وربما أرث القطبية من بعده.. وهي مقام الإنسان الكامل المعرفة باللّه.



ولكي أفعل فلابد من مراقبة الأحوال، والارتحال من حال إلى حال.

هل سيعرف (جان فون وينزل) بمكان التابوت؟

لقد انتهى دور أمين المكتبة، وبدأ طريقك أنت أيها السالك.

ولكن هناك الكثير مما لم أعرف تفسيره بعد.. من المستردّة، ثم المجنونة، ثم الناهب الثاني، ثم ابن الهنجارية، ثم الورع، ثم ملك الشمس، ثم فينوس.. أشعر أن (جان) لن يعاصر هؤلاء، ولكنهم بالنسبة لزماني أنا من الماضي.

المستردة هي (إيزابيلا الأولى)، التي انتهى وجود المسلمين – واليهود – على يديها ويدي زوجها في (الأندلس)، ربما لو علمت أنها من نسل (زائدة الأندلسية)، وبالتالي من آل البيت الشريف، ما تراجعت عن مخططها قيد أنملة.. فهو سيف القدر.

ولكن كيف تحارب شريفة مثلها بني قومها؟ هل يعقل أن يكون أحد أقارب النبي على غير الفطرة؟ أن يحارب المؤمنون بعضهم بعضاً؟



إن (أبا لهب) هو عم النبي، والبعض يكفر والديه رضي اللّه عنهما نفسيهما ! وإن كنت لا أعتقد في تعليلهم. والمؤمنون قتل بعضهم بعضاً في موقعة (الجمل)، لذا سيظل الفارق كبيرًا بين الإيمان والمؤمنين.. الإسلام والمسلمين.

ومن بقية وارثي السر العجيب؟

(المجنونة) لقب شائع لـ (خوانا الأولى) ملكة (قشتالة) و(آراجون) و(نافارا العليا)، و(الناهب الثاني) هو (شارلكان) أعظم ملوك القرن السادس عشر، وهو من نهب (روما) من بعد (جيسريك) ملك الوندال، وأسر البابا، وعندما تأثر بميراث (زيدة)، ترك ملكه العظيم، الذي صارت لا تغرب عنه الشمس، وانسحب في آخر أيامه بأحد الأديرة. (ابن الهنجارية) هو (ماكسميليان الثاني) ملك (بوهيميا)، الذي التقى في عهده بـ (كارل فون وينزل)، آخر من حفظ السر من أسرة الفارس السلافي العظيم (إيرهارد فون وينزل)، وتولى عنه حماية السر العجيب. (الورع) هو (فيليب الثاني)، ملك (البرتغال) والغرب و(صقلية)؛ و(ملك الشمس) هو (لويس الرابع عشر)، ملك (فرانسا) منذ سن الخامسة، وأبرز ملوك (البوربون).. منح لقبه لاهتمامه بالآداب والفنون بالقرن السابع عشر.

استمر.. ومن تكون (فينوس)؟



هذه في زمننا.. أنا وأنت.

خفق قلبي..

هل يعني أنني على مقربة من السر أخيرًا ؟

بدأ الشيكل المقدس العملاق في الدوران، وأنا أصيح به محاولًا التوازن عبثًا:

ما الذي يحدث؟ إنني لم أنته من أسئلتي بعد.. من تكون (فينوس) يا (عبد اللّه)؟

ولكن الدوران تزايد، فتطايرت من فوقه كاللعبة، وضاع وعيي.

****

الجزء الثالث

تعشق تفز

الشيطان

أيقظني هديل بعض الحمائم، فخرجت من ظل ذلك الجبل، الذي وجدت نفسي مستلقيًا في ظلاله، كي أرى ما هناك، فرأيت واديًا صحراويًا مكتظاً بالبشر بالقرب من أحد الأضرحة.. سألت أحد الفقراء وسط دهشته:

أين نحن؟

إنها صحراء (عيذاب).

عرفت موقعي بسهولة، فمعظم الصعايدة يعلمون الكثير عن (أسوان)، وضريح مولانا (الشاذُلي) في الشرق منها. كان هذا فيما مضى طريق الحج لحجاج (مصر) و(المغرب)، فيبدأون من (الفسطاط)، ويركبون (النيل) حتى (قوص)، ومن (قوص) بالجمال حتى هنا، ومن هنا عبر البحر إلى (جدة) في (الحجاز). واندمجت مع عشرات الآلاف في التكبير خاصة وهو يوم (عرفة)، الذي يفد الناس



فيه إلى هنا، بعد أن حرمتهم الظروف من الحج؛ وشعرت بعد فراغي أن ما مر بي كان مريبًا.. اطمأننت إلى هذا الشعور خاصة وقد رجعت لزمني بالقرن التاسع عشر، حتى طرأت فكرة مخيفة في عقلي، سبق وأن فكرت فيها: إن ما جرى لي ليس إلا فتنة تلبستني من الشيطان..

أحداث بعينها تؤكد ما ذهبت إليه..

تضييعي لدفن جدتي الشريفة (رقية).

(لا تفكر في الجن والشياطين كثيرًا.. فهم يستجيبون أحيانًا).

عودة ذكرى نقمتي الحمقاء على ربي.

(سترحم ضميري، بالصمت عن (قال اللّه وقال الرسول)).

الضحكة الماعزية !

(هل.. هل أنت الشيطان؟).

((إبليس) خارق للعادة).

الغرفة الزجاجية، وتحديق الدرويش في الجسد العاري للعاهرة، أثناء مجامعة زعيم العصابة



المتوحش لها، دون أن يغض بصره، كما تقول أبسط بديهيات الأخلاق والأديان كلها.

(بالنسبة لنا أهل الحب، فكل هذا العالم خيال).

نجمة السحر الخماسية.

(الإله الذي لا وجود له إلا بنا).

وجود الدرويش الجديد الغريب.. الوجود الشبحي.

(كل شئ رأيته منذ بدأ هذا الأمر وهذه المطالعة، مثير وعجيب ومخيف، ويحتمل كل شئ.. الملائكية والشيطانية).

الإشارات قوية.. وكلها تشير إليه..

الشيطان.

وارتاعت روحي.. فصرخت:

أتعوّذ باللّه.

وتجاوزت الزحام عدواً نحو الأطراف الخالية من الوادي، وأنا في حالة انهيار وخوف..

ثم ركعت على ركبتيّ في ذهول، وأنا أردد:



لقد سقطت في حبائل الشيطان.. لقد ضاع عقلك يا (سراج).

ولكنه اقترب مني، ووضع راحته على كتفي..

كان يمسك بيده الأخرى خروفًا أبيض اللون، عظيم الحجم، جميل الشكل والقرنين، ويحاول أن ينهضني قائلًا:

قم يا (سراج).. لا بأس عليك.

ولكني تهالكت أرضًا في يأس مميت، فأقعى الخروف أرضًا، وكذا جلس الحاج (ضاحي)، وهو يملس خروفه الجميل الشكل، وأنا أغمغم بلا توقف:

لقد جهلت.. أنا بلا معرفة.. لقد جهلت.. أنا بلا روح.. لقد جهلت.. أنا بلا قلب.. لقد جهلت.. أنا بلا معرفة.. لقد جهلت.. أنا بلا روح.. لقد جهلت.. أنا بلا قلب.

كيف تستمد لطائف المعارف، ووجه قلبك متوجه إلى كثائف المآلف، ولماذا لا ترى غزارة الإشارات، وهي منتشرة بكل المسارات؟

توقفت عن أزيزي الجنوني، وحركتي..

في كلامه نفس الطعم..



نفس الرائحة..

رائحة الصوفية.

فهدأت.. وانتبهت:

وكيف تجاهلت الإشارات؟ لقد طلبت من اللّه طوال الوقت أن يهديني إليها، أن يجمعني بروحي، ويرجعني إلى الطريق.

أن تطلب الحق، خير لك من أن تطلب منه.

أطلب الحق؟

لم يعقب على تعجبي.. ولماذا يرد؟

لماذا ألقيت أنا السؤال من الأساس؟

الأمر واضح كالشمس أو أشد سطوعًا..

أنا أبحث حوله بينما ينبغي أن أبحث عنه. أترك المرآة وأبحث عن الصانع.. والكون مجرد ظل.. مرآة.. وهو الموجود الحقيقي كما أخبرني الشيخ (عبد اللّه)..

كم أشعر بإجلاله الآن، وقد كان يحاول إرشادي طوال الوقت، ولكني كنت أحمق أرعن، أعبث بصفاقة ولا



أحاول أن أفهم..

لم يتغير العالم من حولي، مما يعني أنني في زمني الحقيقي.. لم يحدث أي شئ غير طبيعي، ولكن وجود أبي خروف ليس عبثًا.. إنه مرشد ودليل، أو على الأقل شارح ومفسر. سألته:

أكان غرض الرحلة كله الوصول إليه؟ كيف؟

إن البحث عن أسراره المودعة في الكون، هو بحث عن حكمته، عن طريقة عمل القدر، وتركيبة الزمن، وتآلفات الأرواح. وهو كاتب القدر، وهو الدهر، وهو منه الروح. إن سرًا واحدًا من أسراره، هو لمحة من صفاته، وعلومه اللانهائية.

ثم نهض مادًا يده إليّ، فنهضت معه، وسار إلى جوارنا الخروف بهدوء وبساطة، كحيوان أليف مدرب وليس أضحية، حتى لاح مسجد (الشاذُلي) ذو اللافتة الخضراء، والأبواب البنية، والمئذنة ذات اللون الأصفر الداكن، فقلت له ونحن نسير سويًا في وادي (حميثرة):

ولكن.. ولكن المجذوب.. أعني.. الشيخ (عبد اللّه)، كان يحدق في جسد العاهرة العاري باتساع عينيه.. هذا أكبر دليل على أن الشيطان هو من كان يتلاعب بي.



بل أكبر دليل على أن الدرويش من أهل الطريقة والحب.

كيف هذا بحق السماء؟!

لقد جاءكما الشيطان بالفعل بالغرفة الزجاجية، مسترشداً بدعم من أبلس وطغى، كعادته كلما رصد وليًا هاديًا، وكان غرضه السلخ.. سلخ الخلق عن الخالق، كدأبه وديدنه عبر العصور، فغوى المسكينات الثلاث، واستعان بهن لزعزعتكما، ولكن الدرويش فهم.. فأعاد السهم للرامي في نحره، وأنشد أنشودة الشهود.. شهود قدرة الخالق، وبديع صنعه في صنيعته، وهي الجسد البشري.. فانسلخ تماماً عن الشهوة الحيوانية المركبة فينا، ولم ينصع لطلب الشيطان بسلخ الصورة عن المصوّر.. الطلب الذي أراد تحقيقه بالإغواء والترهيب والتحقير، منهن ومنكما، بإخفاء أن كل شئ يسبح باسمه.. كل شئ على الإطلاق، حتى لو كان جسداً يعصي، وبدنًا يغوص في الحرام. توقف الدرويش عن التشهي بأعجوبة، وقد أعانه ربه على هذه المقاومة لدحر الشيطان. فأظهر ما حاول اللعين إخفاءه، وهو تسبيح هذه الأجساد العارية، ففر النجس، وارتبكت العاهرات. أعانه ربه من أجل القطب الغوث، ومن أجل السر.. ومن أجلك.



يا إلهي.. يا له من شر أصيل.. حقيقي.. راسخ في الزمان والعالم.

الشر الحقيقي ينبغي عليه ألا ينام، والشيطان ينام.

لا أفهم معظم رموزكم الذوقية، الثمينة، كما لم أفهم الكثير عن الإنسان الكامل.

لهذا عليك أن تفهم الظاهر والباطن، الكلام والرمز.. عليك أن تكتسب الحكمة، وهو ما ستحصل عليه إن شاء اللّه بعد سنوات قليلات.. إننا نكتسب الحكمة في سن الأربعين، لأن الانسان الكامل في المرتبة الأربعين من مراتب الوجود. وهذه المراتب أنواع.. وجود حقيقي، هو الأصل والنواة، ووجود مجازي، لا حقيقة له عند أهل المشاهدة، وبينهما وجود كالبرزخ.. هو عالم الإمكان.. أما شعرت لوقت ما أثناء رحلتك، أنك في عالم وسط بين الواقع والخيال؟

نعم.. كأنك كنت معي في رؤيا الحاج (إيرهارد) !

إن الخيال هو عين الكمال، لأنه ظل للكامل.. دليل عليه. هذه المراتب تبدأ بهذا الكامل سبحانه.. الذات الإلهية، ولا يعرف الإله غير الإله؛ وتمر بقية مراتب عالم الأنوار أو المراتب الحقّية بالألوهية،



والربوبية، والأسماء والصفات، وغيرها، ويكون البرزخ بين المراتب الحقية والمراتب الخلقية، في مرتبة الإمكان، بينما تشتمل المراتب الخلقية أو الدنيا على اللوح المحفوظ، والكرسي، وفلك الشمس، وفلك الزهرة، وغيرها، وتنتهي بالنبات، ثم مرتبة الحيوان، ثم مرتبة الإنسان، وبه تكمل المراتب الأربعون، ويكمل العالم، وتظهر تجليات وقدرات الحق. ويبرز في الإنسان أهل حقيقة التوحيد، وأهل القرب الإلهي، وفي كل زمن يرث منهم إنسان واحد فقط مقام القطبية، فيكون محل نظر الحق من العالم، ومحل ظهور آثار صفاته فيهم وعليهم، فيبصر بنور اللّه، ويسير ويبطش بيد اللّه وقوته.

لقد دار عقلي.. ولكن الرحلة اشتملت على أشياء قد لا يكون للشيطان دخل فيها، علمت أنه من أرسل الغرفة الزجاجية في الطريق الهنجاري، وأشك في أنه كان بنفسه تحت فراء الخروف البري، يضحك مني ويسخر؛ ولكن ماذا عن القتلة، وقطاع الطرق، والمجوس، والرومان، واليهود، كيف يكون لهذه الأخلاط دور في تجربة إيمانية، ورؤيا نورانية، وتابوت مقدس نبحث عنه؟ كيف يكون الأعداء ناصرين أو هداة بشكل غير مباشر؟

كنا قد وصلنا لقاعة الضريح الأبيض، المحاط بغرفة مزخرفة مفرغة من المعدن المذهب، وقد فاح فيها



أريج ذكي لكافة أطايب البخور والعطور، ووضع يده هو على الحاجز الفاصل، وهو يجيبني بقصة لم أسمعها من قبل، وسط ترانيم متداخلة خلابة رغم خفوتها، من أدعية وذكر المسبحين، والزوار، والمحبين:

هذا الصالح الراقد هنا كان قد آوى إلى مغارة، أثناء انتقاله من (تونس) إلى (مصر)، فمكث فيها ثلاثة أيام لم يذق طعاماً، ولكنه لم ييأس من روح اللّه كما فعل الأحد عشر كوكبًا، ثم لم يلبث أن دخل عليه أناس من الروم، كانت قد أرست مراكبهم بالقرب من المغارة الساحلية، فلما رأوه قالوا قسيس من المسلمين، ووضعوا عنده طعاماً وشرابًا. يقول رضي اللّه عنه : (فعجبت، كيف رزقت على أيدي الأجانب، ومنعت ذلك من المسلمين، فإذا بنداء يقول :- ليس الرجل من ينصر بأحبابه، إنما الرجل من ينصر بأعدائه).

فهمت مغزى القصة، وعرفت أن للّه حكمة لا يمكننا فهمها بسهولة بالفعل، ومهما ظهر العباقرة والعارفون باللّه، فلا هم عباقرة ولا عارفون به، ولكننا نطلق عليهم ذلك لتقريب المعنى. فهمت كيف جرى السر بين أناس لا علاقة لهم أحيانًا بالإيمان، حتى وصل لي.



قرأنا الفاتحة على روح السيد الشريف (أبي الحسن الشاذلي)، صاحب الطريق ومُظهر لواء التحقيق، ودعا لي أبو خروف وأنا أؤمن على دعائه:

اللهم باعد بيننا وبين العناد والإصرار، والشبه بإبليس رأس الغواة، واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، و لاتجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك؛ وقد أبهمت الأمر علينا لنرجو ونخاف، فآمن خوفنا ولا تخيب رجاءنا، وأعطنا سؤلنا فقد أعطيتنا الإيمان من قبل أن نسألك، وكتبت، وحببت، وزيّنت، وكرّهت، وأطلقت الألسن بما به ترجمت؛ فنعم الرب أنت، فلك الحمد على ما أنعمت.

شعرت بعد أن أدينا صلاة الظهر براحة عجيبة، تشبه السكينة التي وجدتها فوق المذنب الأحمر، خارج الكون. وبينما يسند ظهره ويذكر اللّه على مسبحته، استعداداً للخروج ثم التضحية بالخروف الجاري سلخ فروته، من أجل توزيعه على الفقراء، ارتخت رأسي بدوري على جدار المسجد، متفاعلًا مع التأثير المدوخ للبخور والتمتمات الراجية. وتسلل الغفو إلى كينونتي، كما يتسلل الرضا إلى الضمائر.

****

سهام

أيقظه بلمسة رقيقة، ففتح (سراج) عينيه ببطء، وهو يقول بصوت ناعس:

معذرة يا حاج (ضاحي)، لقد نال مني الهدوء والاسترخاء، و..!

ولكنه قطع حديثه بدهشة أقرب إلى الذهول، عندما سمع صوت خاله (لطيف):

من الطبيعي أن تستمر في الأحلام، فهو الضحى أيها الكسول.

نهض الشاب بحركة حادة، أقلقت خاله، وهتف به:

أين الدرويش؟ هل غادرنا سنة ١٤٧٣؟

حدق فيه (لطيف) ببلاهة، ثم ضحك بسلاسة:

ربما لو لحقنا بشقيقك سنجد الرد.

وكأنما تذكر كل شئ فجأة، ضربت ذكرى الليلة الماضية عقله، فزاده هذا ذهولًا حقيقيًا هذه المرة، فجلس على فراشه كأنه يسقط:

رباه ! رباه !

كانت تفاصيل ما مر به مازالت قوية، واضحة، رنانة، بشكل ينفي تماماً كونها مجرد حلم، وبسرعة فتح يده، فرأى الإصابة الدامية مازالت حديثة، تصرخ بضجة أمواج جزيرة (يابسة)، وحدة صخورها، بالكاد ملتئمة، يلهبه ألمها هذه المرة، رغم أن ما يراه الآن يشير إلى أنه لم تمر سوى ليلة واحدة، نام فيها بعد ما جرى بين شقيقهم (رشاد) وبينهم، ونيته الشيطانية لقتل والدهم، انتقاماً لجرمه الشنيع.. ليلة واحدة التقى فيها بالدرويش وأبي خروف، وتتبع لغزاً قديماً عبر متاهات الزمن وخلجانه المتعرجة، انطلاقاً من انتخاب قطب زمانه له، كي يترقى الشيخ (عبد اللّه) في درجات ولايته، وكي يفهم هو، ويصير من السالكين، وذلك ببره بوالدته، وزهده في الدنيا..

ليلة تساوي أياماً وشهوراً وقروناً.

ظل يحدق في إصابته، حتى أنه لم ينتبه لخاله، إلا بعد أن جلب قطعة قماش ليربط بها إصابته:

يبدو أنه كان حلماً شديد التأثير.. حتى أنك أصبت نفسك أثناء نومك.

حقاً يا خالي؟ لماذا إذاً لا أجد سبب الإصابة، أو مكان الجسم الحاد الذي أحدثها من حولي؟



تلفت الرجل البسيط حوله في حيرة:

لله في خلقه شئون يا بني.. ربما هم إخواننا من الجـ...!

قاطعه (سراج) بضيق وهو يغادر:

توقف.. إنك حتى لا تعرف أنك كنت حلقة الوصل.

حلقة الوصل بين من ومن؟!

ولكن (سراج) لم يحفل بالشرح والتفسير، وهو يغادر الدار، ويسير وسط الحقول الخضراء الغناء، محاولاً التظاهر باستمرار ما رآه، منتظراً تحولًا أو تغيراً جديداً، ينقله لهذه الرحلة الممتعة رغم غرابتها..

لكن لم يحدث شئ.

إنه الواقع بكل رتابته.

عاد إلى الدار فوجد (صلاح) و(فكرية) يتناولان إفطارهما، بينما كان هو وخاله قد نويا صيام يوم (عرفة)، وقال له (صلاح):

لقد عرفت نتيجة مدرسة الزراعة اليوم.. سبحان الله.. كان القدر سباقًا، فرحلت الشريفة قبل أن



تعلم خبر قبولي، بفارق يوم واحد فقط.

رحمها اللّه وطيب ثراها، وبالتوفيق لك يا أخي.

هل ستلحق بـ (رشاد)؟!

كان ما مر به قد جعله يشعر بفارق أعوام، بين ليلة الوفاة وتجبر شقيقهم الأكبر، وبين هذا الصباح المرتبك، ولكنه قال بحزم:

سأفعل.. وأنت؟

لقد عرفت أثناء عودتي هذا الصباح إلى الدار، بأخبار جديدة عن السيد (دياب حجاج) صديق والدنا، وسوف أبحث عبر هذا الخيط.. السيد (دياب) والد (سهام) لو كنت تتذكره.

سقط قدح فارغ من يد (فكرية) محدثًا جلبة مفاجئة، فنهضت مرتبكة وتشاغلت بإحضار بعض الخبز من المطبخ، ولم يلحظ أحدهم أسنانها التي عضت شفتها السفلى في ألم، مع ذكر (صلاح) لـ (سهام)..

كانت تفكر في أنه مازال يتذكرها، وأنه لا ريب راجع لها.. وأنْ خير لها أن تموت، ولا تحيا في عذاب حبه



غير المعقول أو المشروع، باعتبارها شقيقته في الرضاعة..

وكان (صلاح) نفسه يؤيد ظنونها ومخاوفها، إذ كان ما يشغله بالفعل ليس الوصول لوالدهم قبل (رشاد)، بل الوصول لـ (سهام) حب الطفولة البعيدة، الذي لم ينضب من شغاف قلبه بعد..

أما (سراج) فكان قد شعر برغبة قوية في التوجه للمقهى، فاستأذنهما، وهو لا يعرف لماذا، ولكنه عندما التقى (أيمن) صديق (رشاد) المفضل، أدرك أن أفكاره في الـ (بيبليوتيكا كورفينيانا) حول حاسته السادسة، أو موهبته في انتخاب الطريق الأصح، قد ترقى لنبوءة عن امتلاكه كرامة حقيقية.. إذ أن (أيمن) سرعان ما وقع بلسانه عندما سأله:

قل لي يا (أيمن): أخبرك (رشاد) عن سفره إلى ذلك المكان في (بورسعيد)، أليس كذلك؟

نعم وبلا فخر.. إنه يخبرني بكل قراراته يا (سراج)، ومحل (حجاج) للعاديات معروف هناك بشارع (العزيزية)، بجوار مكتب البريد الفرنساوي، ولكن مهلًا.. لماذا تسأل؟

كنت أطمئن على شقيقي فحسب.



وتركه يشعر بالارتباك والشك في إفشائه للسر، بينما كانت رمية (سراج) بغير رام، معتمداً فقط على تذكير توأمه له بصديق والدهم القديم، والذي نزح للعمل في (بور سعيد)، فلا ريب أن (رشاد) لن يجد خيراً من (بور سعيد) لبدء البحث عن والدهم.

ولكن (حلمي الغرباوي) لم يكن مجرد ثعلب، بل كان ذئباً شرساً..

بمجرد أن أدرك (دياب) رغبة الابن الحقيقية، التي لم يأبه بإخفائها أو التمويه على حيثياتها، فوجئ (رشاد) بصفير قصير يخرج من بين شفتي صديق والده، وبثلاثة من العمال ضخام الجثث يحيطون به في مكتبه بمتجر العاديات، حاول المقاومة وهو يصرخ:

ما الذي يحدث يا رجل؟

ثأر الصعايدة وهذه الأجواء المشئومة لا مكان لها هنا أيها الفتى، والزعيم لا يمكن أن يتسلل الضعف لعالمه بعد جهد سنوات من البناء، والسرية، والانضباط.

الزعيم؟ هل تعمل لصالح الوغد؟



هذا الوغد هو والدك أيها السليط.. ولكنه هو المسئول عن إعادة تربيتك، وظيفتي احتجازك فحسب حاليًا.

ليس هذا من حقك أيها العفن.. أي تجار مخدرات حقراء وقعت في حبائلهم؟

ألقوه في المخزن، وقيدوه جيداً.

راح يصرخ ويحاول قتالهم، ولكن الثلاثة كانوا من ذوي الأبدان العريضة المتينة، سرعان ما سيطروا عليه وسحبوه سحبًا إلى المخزن.

في صباح اليوم التالي وصل الشقيقان التوأمان، لكنْ كل بمفرده، باختلاف الأهداف..

فـ (صلاح) كان يسعى وراء حبه القديم، وعندما رآها تغادر إلى حيث السوق في ذلك الصباح، شعر وكأن روحه قد ردت إليه، وأن حياته قد صارت ذات قيمة وهدف..

أن العالم صار مكانًا يستحق أن يحارب فيه، من أجل إسعاد إنسانة واحدة، هي في الواقع صاحبة جزء منفصل متصل من فؤاده الرحب..

ولم يعبأ بأبيها أو متجره، بـ (رشاد) أو والده..

فالآن فقط أشرقت (سهام) في سماء دنياه..

وفي السوق استوقفها داخل حانوت هائل للحرير، ومد يده يصافحها:

لقد كنت أنتظر مراسلاتك الشهرية بكل لهفة العالم.

تجمدت للحظات في عدم تصديق، واتسعت عيناها من خلف اليشمك المفرغ بفتحات واسعة، تكشف ملامح وجهها على نحو شبه واضح، واحتضنت كفه الممدود في حب وألم:

(صلاح).. لقد كنت أبذل المستحيل للحصول على رسائلك سرًا، أخيرًا رأتك عيناي.

لمس كتل الأقمشة بجواره كي يشعر أنه مازال في الدنيا، ولكن الملمس المخملي للحرير الطبيعي، جعل طبيعة الجنة أقرب إليه، وهو في حضرة المحبوب، فأخرج إليها زهرة (الأوركيد) المحنطة القديمة:

لا بأس يا حبيبة العمر كله، إليك بزهرة حبنا الصادق كما هي.. كما هو عشقنا غير ذابل.. الآن سنبدأ صفحة جديدة.. الآن سنغير مصيرنا الواحد.

تناولت منه الزهرة بفرح مؤقت، سرعان ما خبا بيأس، فأطرقت برأسها وقد ازداد ألمها، وقالت بلهجة حاولت جعلها عادية، فخانها الانفعال:

مر وقت كبير يا (صلاح).. وقت أجبرني فيه والدي على دعم تجارته غير المشروعة، بالموافقة على الزواج من ابن أحد البكوات، الذي سيسهل له ترويجه للأفيون اللعين، والليلة سيعقد القران.

بهت (صلاح)، وارتجف جانب شفتيه:

الزواج؟ الليلة؟

أشاحت بوجهها لتخفي دمعة قهر وعذاب:

لكن هذا بغير رغبتك يا (سهام)، لذا فهو زواج لا يجوز.

لا يوجد شئ لا يجوز أمام أبي، إنه سيتحالف مع الشيطان من أجل مصالحه.

تعمقت صدمة (صلاح)، وقد أفاق من نشوة حبه المسكرة على طبيعة الواقع، وعلى هذا العائق الذي لم يتخيل وجوده، رغم أنه بسبب (دياب حجاج) نفسه، فقد حبيبته في المرة الأولى.. ولكنه لن يسمح بفقدانها لمرة ثانية أبداً:



نهرب.

ماذا؟ كيف نفر من المعلم (دياب حجاج)، الذي يخشاه محتسب هذا السوق شخصيًا؟

ألست تحبينني؟

بلى.. ولكن ما تطلبه مستحيل، لقد وافقت مكرهة على ابن البك، ولو هربت، لقلب الدنيا رأسًا على عقب من أجلي، مستعينًا بنفوذ البك.

إذًا ابقي، وسأتحدى الخديوي شخصيًا إن تم تزويجك برجل آخر، سأقتل ابن البك ليرتدع الجميع.

انتفضت في هلع، وهي لا تتصور ما سمعت:

أرجوك يا (صلاح).. أتوسل إليك باسم حبنا ألا تنطقها ثانية، إنني لن أتخيلك من المسجونين.. عدني بنزع هذه الأفكار من عقلك.

قلب كفيه في مرارة:

وما الذي سنفعله إذًا.. هل تطلبين مني أن أتركك لهم بهذه البساطة؟ هل ستسمحين لغيري بأن يضمك؟

لا أفعل ولو اضطررت للانتحار.

وأسقط في أيديهم..

ما الحل؟

هل من مخرج؟

كيف يمكن الحفاظ على حب طاهر عفيف، في زمن المصالح والمادة؟ في زمن عنيف..

من يمكنه إنقاذهما؟

" لن يَقتل أو يُقتل أحد "

التفتا بسرعة البرق لقائل العبارة، و(صلاح) يهتف في دهشة:

(سراج) !

أقبل عليهما، فشعرت (سهام) أنها أمام نسختين من (صلاح)، مع فارق أن (سراج) يرتدي الجلباب والعمامة، وسألته بدهش:

كيف تصادف أن عثرت علينا؟

لهذا قصة طويلة، ولكرامة الكشف تفسير مختزل، إن (حلمي الغرباوي) اجتذب (دياب) لعالمه القذر،



وليس بأيدينا إنقاذ آبائكم بعد أن ضاعوا، ويحاولون الآن تضييع أبنائهم من بعدهم أيضاً.

ليس ثَم مخلوق واحد يمكنه مساعدتنا يا أخي.. كيف النجاة باللّه عليك؟

عندما تضيق بنا الدنيا، ويأخذ أصحاب النفوذ بأسباب طمأنينتنا، فليس أمامنا سوى الماجد المهيمن.. وفي الآونة الأخيرة، التقيت برجل صالح، ليس عليكما سوى أن تدعُواَ اللّه كي أعثر عليه، هو الآن شيخي ومرشدنا وسط أمواج هذه الدنيا المظلمة.

وحتى ذلك الحين ما العمل يا (سراج)، كيف يكتب لي اللّه الحياة في كنف أخيك بدلاً من كنف المجرمين؟ كيف أكون عروسه وامرأته؟

الخطف.

تأملاه بعدم فهم، فأردف:

ستبيتان في أحد الفنادق، وإذا ما عثر رجال والدك عليكِ، فستدعين أنه تم اختطافك، وأن خاطفك لاذ بالفرار قبل مجيئهم. توكلا على اللّه، ودعا الباقي له ولي.



وبدأ بحثه عن الدرويش..

ربما لآخر مرة.

****

القطب

تطلع (سراج) عبر الزجاج القذر إلى ذلك الصبي.

لم يدر لماذا انشغل به..

الحدود بين العالمين تزداد دقة ورقة، عالم الغفلة وفيه يندرج معظم الناس، وعالم اليقظة، وهو لخواص الخواص..

كلما تعلق قلبه بذكره، كلما ازداد الكشف[٩] .

والتعلق بالنسبة له لم يعد مجرد عدم نسيانه، بل صار بعد تجربة السر البوهيمي، ملاحظة قدرته في كل ما يراه ويسمع..

كان الصبي يمسح زجاج المحل من الناحية الأخرى منهمكًا، لا يلاحظ مراقبه، ثم لم يلبث أن غادر المحل الذي يعمل فيه، فتبعه (سراج)، ورآه في طريق عودته لداره يتوقف عند أحد الجدران، بعد أن



عبر بضعة شوارع، ويخرج عضوه المنمنم كي يبول..

شئ ما دفع الشاب للتوجه إلى موضع التبول بعد مواصلة الغلام لطريقه، وكالمغلوب على أمره، وقف جامداً في انتظار أن يحدث أي شئ..

ولكن لم يحدث شئ بعينه، فمال على الجدار لالتقاط أي أصوات في الناحية الأخرى. فسمع صوت (رشاد).

كان يصرخ بتهديد ووعيد، بينما يحادثه شخص آخر، بدا صوته كأنه قادم من زمن قديم.. صوت (حلمي الغرباوي). بحث عن مدخل للمخزن الضخم، حتى وصل لمحل (حجاج). غفل (دياب) عن المدخل دقيقة واحدة، عندما كان يغسل يديه بعد إفطار دسم، مرق أثناءها (سراج) كشبح، حتى وصل للمخزن، وهناك رآه..

كان والده يقف شامخاً أمام ولده البكري، المقيد بلا حول ولا قوة على مقعد ثقيل، من خشب الزان، وهو يلوح بالبندقية ويقول ببرود:

علمته الرمي فلما تعلم رماني.. أليس كذلك؟ هل كنت ستقتل أباك حقاً يا (رشاد)؟



ولكن الابن التزم الصمت عندما حدق في (سراج) بدهشة وعصبية وتهكم، فالتفت الأب بسرعة، والتقت عيناه بعينيْ (سراج):

أنت أيضًا؟ ولكن كيف وصلت إلى هنا يا (صلاح)؟

ليس من المستبعد أن يخطئ الأب في التعرف إلى أحد توأميه، خاصة لو كان على شاكلتك.

(سراج)؟ هل تبحث بدورك عن الانتقام؟

لقد حرمت الحكومة زراعة الحشيش.

هبط القول على رأس والده كالصاعقة، فارتجفت شفتاه للحظة، وهو لا يشك في صدق ابنه، وهو يسأله بذهول:

من الذي أخبرك بهذا بحق الشيطان؟

نعم من الذي أخبره؟

لقد وقعت المعلومة على لسانه، كما يسقط اليمام الذي تم صيده على حين غرة، فنطقها بلا تدبر أو تروٍّ.. شاعرًا بأنه يقرر حقيقة معروفة، يرددها الناس مرارًا وتكرارًا حد الملل.. أو أنهم سيفعلون..



وبعد هنيهة من الصمت والدهش، اقتحم (دياب) المخزن صائحاً:

غرامة مائة قرش دفعتها.. لقد قررت السلطات منع زراعة أو استيراد الحشيش، وبدأوا بنا هؤلاء الأوغاد.. مائة قرش، ووصلت عند البعض مائتي قرش، مع مصادرة قناطير مقنطرة من المحصول، و..!

بتر عبارته فجأة وهو يحدق في (سراج) بنظرة عجيبة:

من .. من هذا؟ كيف دخلت إلى هنا يا صاح؟

تجاهله (سراج) تماماً وهو يرد على سؤال والده المذعور:

ولماذا بحق الشيطان وليس اللّه؟

انقلب ذهوله إلى ثورة مع الخبر المفجع، الذي سيدمر تجارته وافرة الأرباح:

لأنه لو كان موجوداً لما أصابني هذا البلاء.

هل ستكفر يا أبي؟

لم أكن مؤمنا كي أكفر أيها الملاعين.. أنتم لستم أبنائي.. الأبناء الذين ينحدرون من أصلاب آبائهم



حقًا، لا يناوئونهم، ويرثون مهنته.. كل الأبناء كذلك.. النجار يلد نجاراً، والحداد كان والده حداداً، والصائغ يربي صائغًا.. ومنذ أن نيط بي هذا الأمر، وأنا به أحيا، دون أن أخالف جدك.. أين أنتم من البنوة يا كلاب الأرض.

ثم أشار لـ (دياب) بإشارة خاصة، فصرخ هذا فجأة:

(فتح اللّه).. (زكي).

وفي لحظة وصل العملاقان، وانقضا على (سراج)، الذي لكم أولهما، وغاص بمرفقه في بطن الثاني، ولكنهما نجحا في تقييده إلى جوار شقيقه. قال والدهما بتهكم:

لدي مناسبة سعيدة في المساء، ولا أحب أن أفسد الصفقات الجديدة بصداع الأبناء.. اهدآ يا طفليّ.

أدرك (سراج) أنه سيبحث عن (سهام) لعقد قرانها على ابن البك، وسيجدها بالتأكيد، ورأى ضوء الشمس يبدأ في تخفيف سطوعه عبر فجوة بأعلى المخزن، ساحبًا معه جنود النهار.. فصاح به:

لا تزوج (سهام).. باللّه عليك لا تفعل.



كيف تعرف كل هذا؟.. غريب. لا يوجد إله كي تستحلفني به يا بني، لو كان هناك واحد لرحمنا جميعًا من هذه الدنيا القذرة القاسية. صدقني هذه النصيحة لن يقولها لك إلا من عرك الحياة، ويخشى عليك مثلي. إن سكة التصوف ولبس الخرق والرقع هذه، لن تهبك شروى نقير.

كيف لا يوجد إله وهو الذي أنطقك.

لو كان هو من أنطقني، لما جعلني أنكره.

ثم ابتعد وهو يضحك بسخرية، وخلفه (دياب) ورجلاه، ثم لم يلبث أن أغلق المخزن من الخارج بإحكام.

بمرارة قال (رشاد):

لقد نجا مني الوغد.

لا تجعل الانتقام هو كل شئ يا أخي الأكبر.

فجأة سمعا صوت الدرويش:

ولا تجعل أنت هدايته مبلغ همك يا (سراج).

انتفض (رشاد) في ذعر، وتطلع الشقيقان بقيودهما إلى ركن المخزن المظلم، فشاهدا رجلاً

يخرج منه وقد كان جالسًا هناك من البداية، دون أن يشعر به أحد، وصاح (سراج) في فرح جنوني:

الدرويش.

تدلى فك (رشاد) السفلي في بلاهة وهو يردد:

الدرويش؟

كيف لا أدعوه لتوحيد اللّه؟ كيف تقول لي هذه النصيحة شديدة التناقض؟

لأنه لا جدوى من إثبات وجود اللّه لملحد.

شارك (سراج) شقيقه في بهته، وقد أدرك أنه مقبل للتو على غريبة أخرى من غرائب الدرويش، رجل العجائب:

ما الذي تهرف به يا مولانا.. اعقل الكلام.. إن إثبات وجود اللّه لا يكون إلا للملحد، هذا أساس دين الإسلام!

بل هو انحراف عن النهج الإسلامي.. فكل الرسل نزهوا اللّه عن محاولة إثبات وجوده بدليل، وقدسوه عن أن يكون وجوده بحاجة لحجة وبرهان.



ربما لأن الكافر قد يؤمن بوجود إله، لكنه يكفر بنعمه وأوامره، بينما الملحد بحاجة لهذا الدفاع عن وجود اللّه، لأنه لا يؤمن به من الأصل.

ولكن كيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل؟ وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها؟ الدين لم يأت لإثبات وجود اللّه للمتشككين، بل لتوحيد اللّه وتنزيهه. والآن هيا انهضا.

نظرا إلى قيودهما المانعة لهما في تعجب مشترك، فقال الدرويش لفك أسرهما:

قولا ورائي: يا أهل السماء، جل الجليل صاحب الاسم الكبير، الأرض بكم ترجف، والرياح بكم تعصف، والبرق بكم يخطف، والبحر بكم يقذف، والأملاك بكم تهتف، وأسماء اللّه العظام محيطة بكم. يا ملك البوق، أجب يا (إسرافيل) عليك السلام، أجب بحق من تجلى للجبل وجعله دكا، وخر (موسى) له صعقا.

كنا نردد وراءه في ذهول، حتى حدث ذلك الأمر الرهيب، إذ انتقلنا معه عبر الجدار، كأننا نطير في الجو، ووجدنا أنفسنا في زحام مولد قريب، مقام حول ضريح لأحد الأولياء، دون أن يشعر أحد بظهورنا المباغت، وكأننا هنا منذ ساعة، حتى أن



أقدامنا أوجعتنا من الوقوف، وتلاشت من معاصمنا القيود كأنها كانت وهما.

كأن كل العالم وهم.

أهو كذلك؟

مازلت لا أصدق.

لكن كيف يصدق هؤلاء الفقراء تلك الفكرة الخارقة، التي يعجز المتعلمون عن فهمها؟

سألته في وجل:

هل نحن في عالم المثال؟

لم يجب.

كان من الواضح أن هذه المرحلة انتهت. ولكن الكرامات لم تنته.

عدت أتعلق بأجوبة لسانه، و(رشاد) غائب تمامًا في ذهوله العارم:

كيف عبرنا الجدار؟ ولماذا (إسرافيل)؟ ألم يكن من الأولى أن يكون أقرب الملائكة للّه.. (جبرائيل)؟



لماذا لا تريد أن تصدق يا (سراج)، قلت لك إن كل شئ مجرد خيال.. قوالب وأشباح تجري عليها أحكام القدرة. صدق قبل فوات الأوان. أما (إسرافيل) فهو الأقرب، متعلق بقائم العرش، شاخص ببصره في انتظار الأمر الإلهي بالنفخ، عن يمينه (جبرائيل) موكل أهل الأرض، وعن يساره (ميكائيل) موكل أهل السماء.

كانت حلقة الذكر في المسجد تصدر جلبة هائلة، تنافسها ضوضاء المولد والبهاليل والشحاذين، وكأنه الوجه السلبي للقوم. جبانة تكسوها الخيام والمتاجر المتنقلة والمقاهي، وقد هرع الشباب خلف سحر الراقصات والمشعوذين، وأخذ طوفان من الأطفال يشتغل بالأراجيح، وقد ألهته عن الكون وما فيه.

دنونا في شرودنا من جماعة كانت الأشد صخبًا وابتهاجًا مما عداها، وعندما تحلقنا حول بغيتهم، هالني سر انشغالهم، فقد كان جمهور غفير، يتزاحم في دائرة حول قرد ضخم مكمم بعناية، يلعب مع غلام صغير، وبعد كر وفر ومطاردات، تمكن الحيوان الشهواني منه، وراح يعبث بيد مدربة في إليتيه، ثم لم يلبث أن وثب فوقه، بحركة مخلة بالحياء، ورأيت بعينيّ، أماً وطفلتها تضحكان بسعادة من هذه الفعلة الشنعاء، وهذا التقليد الشعبي القديم، القادم من ألعن ثقافة ممكنة.



لا أعرف لماذا تترك الحكومة مثل هذا الفساد الفاحش قائماً، ولماذا تحتم علينا رؤية هذا الموقف البذئ، وبيننا الدرويش الطاهر، ظاهر الكرامة. إن الإيمان منه، والكفر منا نحن. خطر لي هذا بينما – ويكأنما يقرأ فكري – قال:

لا.. الإيمان والكفر من اللّه، وباللّه، وللّه[١] !

فلم يعد (رشاد) يتحمل فيبما يبدو، وهو ينفجر صائحًا:

أي جنون أحياه.. من أنت.. بل من أنتما؟! ما مغزى كل هذا؟ كيف ولماذا؟ دعاني لحال سبيلي.

وانفصل بعيداً، كالمهرول، والدرويش يعلق:

إذا تملكت الدنيا من القلب، خرجت منه الآخرة.

إنه يفر فراراً.

كلنا نفعل أمام الحقيقة.

الحقائق أثقل من أن يتحملها البشر.

ووحدهم أناس يغبطهم الأنبياء والشهداء يدورون حولها، يتبينونها، يتدارسونها، وحدهم –



العارفين بالله– يجعلون الحق (عز وجل) نبراسًا لهم في كل أمورهم، فهو واضعها، وموجدها. هو العالم. هو العليم.

والعارف لا يعرف متعة في هذه الحياة إلا المعرفة.

فمعرفته عند أهل الباطن، هي توحيده عند أهل الظاهر.

بدأ نور يقذف في قلبي، فتشبثت بظل الدرويش أكثر، لعله يروي ظمأً طال غيه.

إن الهيبة التي تحيط به لم تكن في البداية، فلعله اقترب من مقام القطبية كما أراد. فكما يقول القوم: الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، وهو يسعى لاكتساب مقام أعلى.

كان قرص الشمس يدلف وراء العالم، وأنا أسأله:

هل أنا الأول؟!

لم أفسر مقصدي.

ربما لأنني أنا نفسي لا أعرف، هل أقصد أنني أول من خاض معهم رحلة كهذه، أم هل أقصد أنني أول من رأى ما رآه. أجابني على أي حال:



سبقك (محفوظ). كنت معه وسأكون مع ولده.

لم أسأله المزيد. وعندما حل الليل وصلنا إلى سرادق العرس.

بالأمس كان سرادق الحزن، واليوم سرادق الفرح. الحياة ليل ونهار من الحزن والفرح.

وكانت المفاجأة أن العرس لم يؤجل.

بسرعة توصل أبي بمساعدة نفوذ صهره الجديد لمكان (سهام)، وأجبرها على ارتداء ثوب الزفاف، استعداداً لعقد القران.

شعرت أن مصيبة ما ستحدث هذه الليلة.

وبسرعة وصلت في الوقت المناسب، ومنعت المأذون من إتمام العقد، فصمت الجميع، وصاح والدي بذهول وهو يحدق فيّ:

(سراج)؟! من أخرجك من المخزن؟!

هذا الزواج باطل.

توقف يا ولد ودع هذا العبث.

بل توقف أنت.

كانت هذه من (رشاد)، وقد كان حتى آخر لحظة، أحد رجال الترتيبات وتنظيم السرادق، متنكرًا ومخفيًا وجهه بعمامة بلدية بشكل عفوي، عندما انتزعها فجأة، وقال كلمته، وهو يغرس سكينًا كبيرًا في قلب أبي.

صرخت صرخة صامتة، قبل أن أستطيع فعل أي شئ، وعندما انقض الرجال على أخي، رفع بندقيته، وأطلق النار، ثم وثب يتحصن بالمقاعد.

وتحول السرادق لمذبحة مفاجئة، عندما سقط (دياب) من الدقيقة الأولى وسط رجاله.

الهلع العظيم يسود.

أسرع (صلاح) ينقذ (سهام) من الموت، والرصاص يدوي كالقنابل، مع دخان كثيف، وصرخات المدعوين أثناء هروبهم المتخبط، يحول كل شئ لفوضى عارمة، وقد شعرت أنه على حق من البداية، عندما سمعنا ابن البيك يصرخ كالفتيات، وهو يهرب تاركًا عروسه المفترضة بسرعة مذهلة.

ولكن ملامح توأمي كانت تشي بحب عميق.

وميلاد جديد.



وكانت هي رغم فزعها تبتسم في أمل، وقد عادت لحبيبها.

وإلى جوار جسد أبي المسجى بلا حراك، سقط جثمان أخي أخيرًا مضرجًا في دمائه الحارة، معلنًا أن الكثرة تغلب الشجاعة والشجعان، الانتقام والمنتقمين.

ولكن أعجب ما في الأمر هو شعوري.

لم أصدم، أو أحزن، أو أغضب، أو أصب بالخوف لمقتل أبي وأخي..

نعم، أخذتني المفاجأة للحظات بحكم بشريتي، ولكن معرفة أن كل هذا قضاء مقدر سلفًا، واستيعابي للمفهوم الصوفي الخاص بتجلي القدرة الإلهية، والذي يرى قدرة اللّه وإرادته في كل شئ من حولنا، من أصغر الأمور لأكبرها، جعلني أتماسك بسكينة عجيبة للغاية، والدرويش يربت على كتفي. كأنه يثبتني. أو يهنئني.

وبصمت انسحب وسط الهاربين، فتبعته.

غادر الشارع كله، فغادرته.

المدينة كلها، فكنت على أثره.



بدون أن نتبادل حرفًا.

حتى وصلنا في سفرنا إلى النيل.

هل ستجعلني ألتقي بالقطب أخيرًا؟ يا له من لقاء لا يمكنني تخيله.. لا أعرف مدى حرارة انفعالي وشعوري عندما أقف أمام رجل كهذا غير لي حياتي، لن يمكنك أبدًا أن تتخيل ارتجافي من مجرد الفكرة.

أتذكر قوس (تيتوس) وما كان فيه يا (سراج)؟

نعم.. كان ذلك البناء يحتوي على رسم معلق في الهواء لنجمة خماسية. نجمة السحر الملعون كما علمت من أفكار (إيرهارد فون وينزل)، ولكن الرجل الصالح لم يفسر كيف يظهر الدنس في المقدس.

كنا جنوبًا على مركب بضائع، عندما أشار لجزيرة نيلية صغيرة، يتوسطها كوخ فقير من البردي، بدت كلوحة فنية غامضة، مع تحرك أهداب طويلة من الكتان الأحمر تزين باب الكوخ، وتطايرها في فجر اليوم التالي:

في الكوخ ستلتقي بهذه النجمة.

ماذا؟ نجمة السحر الأسود؟ ما هذا الأمر المشؤوم؟



إنها في الأصل رمز لكوكب (الزهرة).. ثم جرت عليها الأزمان بصفة السحر الملعونة.

لم أفهم، هل يعني أنني سألتقي بشئ يخص كوكب (الزهرة)؟!

كان الوقت الذي يسبق الفجر رماديًا، لم ينجلِ ظلام ليله تمامًا بعد، ومع النسمات القوية سرت قشعريرة قوية في نصف ظهري الأيسر، لاحظها الدرويش فقال:

هل تفهمها؟

لم أكن قد وصلت لدرجة عالية بعد من الكشف، ولكني عرفت أنه يقصد القشعريرة، فتحيرت لثوان في إجابته، إذ أن علومه تفوق علومي بمراحل. علوم الباطن. وأدرك هو عجزي فأردف:

إن سبب القشعريرة تصفحه وجوهنا مرتين في اليوم، كي يتبين استيفاء أجلك من عدمه.. وأعنيه هو: ملك الموت.

ارتجفت شفتاي، بينما رسا المركب عند حواف الجزيرة، وطلب الدرويش من المراكبي أن يرحل، فتعجبت للحظة قصيرة، ثم قررت أن أرحم نفسي

من التعجب والدهش اللانهائييّن، طالما كنت برفقة الشيخ (عبد اللّه).

الأكثر تشويقًا أنني سأكون بعد قليل في حضرة القطب شخصيًا.

روح العالم، وصاحب الوقت في هذا الزمان.

يا له من شرف عظيم !

عندما دنونا من الكوخ، تطايرت خيوط الكتان الغليظة الجميلة، وقد ازداد هواء الفجر نشاطًا، وعندما خرجت المرأة الجميلة ذات الرداء الأبيض الواسع الهفهاف، بزغ ضوء الفجر ساطعًا فجأة وانعكس على وجهها، فارتبكت للحظة، ولم أعرف هل هو مجرد انعكاس، أم أنه يبزغ من وجهها هي، وقال الدرويش ببساطة جعلتني أكاد أذوب في موضعي:

أقدم لك أمة اللّه.. قطب زماننا. عليها مدار العالم، وبايعتها الأرواح العلوية للملائكة والبشر والجن.

لم تتحمل ركبتاي.

فركعت على الرغم مني، وأنا أنظر لابتسامتها الرقيقة في جمود، وقد شل لساني تقريبًا.



امرأة؟!

الإنسان الكامل امرأة؟!

قال كأنه مصر على قراءة أفكاري:

قد يكون القطب امرأة، فلا يمنع هذا من أن تسجد لها الملائكة، وتسخر لها السمَوات والأرض.

قالت بتواضع جميل:

انهض يا سيد (سراج).. إن الدرويش يبالغ قليلًا في الاحتفاء بي، ولا يعرف أن حتى القطب، له نظائر بين الأفراد في درجة القطبية، وقد يكون منهم من هو أفضل منه في العلم، تمامًا كما أن (عبد اللّه) قد صار أفضل مني في العلم.. لكن هذا القطب يكون قد سبق بسبق العلم فيه أن يكون الوالي، وبألا يكون في الزمان إلا واحد يقوم بهذا الأمر.

نهضت بصعوبة. سألتها في تردد، وقد غلب عليّ خجل مزعج، وحرج مروع:

هل يعني هذا أنه يمكنك الآن السير على هذا الماء، والطيران في الهواء؟

ضحكت بهدوء، والشيخ (عبد اللّه) يفسر:



يا (سراج) القطب ثابت الأحوال، فهو رغم مكانته من اللّه، أسمى من الأولياء، لأنه ليس من أهل الأحوال. يخلو به اللّه، ولا اختيار له في خرق العادة.

أمنت رضي اللّه عنها على كلامه قائلة:

لهذا استعنت بالدرويش، كي تخوض رحلتك إلى الكنز البوهيمي.

كنت في حضرتها قد نسيت تماماً ما مر بي من أهوال وعجائب، فشرعت أسألها في حماس:

إن (زائدة الأندلسية) قد حافظت على التابوت، وأخفته في (مصر).. لكن لحظة.. لقد جرفتني الأحداث كالعادة، ونسيت أن أسألك عن اسمك يا سيدتي؟

ابتسم الدرويش لأول مرة منذ فترة، ففهمت فجأة إشارته الماضية. إن النجمة الخماسية تشير لكوكب معين.. فلابد أن روح القطب تدور في فلك هذا الكوكب، وعليه اسمها، لهذا قال إن هذه النجمة هنا:

لحظة.. إن اسمك هو (زهرة)، ألستِ كذلك؟

بلى.. وهذه من المرات القليلة التي تعرف فيها بنور العقل، لا الكشف.

ابتسمت في فخر وإيمان، وعندما ذكرني ثغرها الطيب برقة بسمة الشريفة (رقية)، قلت:

بدأ كل شئ بخالي (لطيف).

أشكرك لتركك جدتك ودعائك لأخي. المتوفى الثاني يومها.

شملني تيار ضخم من نبضات قلبي، فزلزلتني كخرقة في مهب الريح:

هل.. هل كانت الجنازة الثانية لشقيقك؟

لم يكن من اللائق عدم الدعاء لمولاتي الشريفة (رقية).. إن بركاتها لا تعد ولا تحصى، وقد قام (لطيف) بدوره خير قيام، عندما استجاب للإشارة، حتى وإن لم يفهم سببها، واصطحبك لتؤدي عني دوري.

بل الشكر لكِ أنتِ يا شيختنا.. والشرف لي، والحمد للّه أن جعل دعاءك أنتِ لجدتي، فربما لم يكن ليستجيب لدعائي وقتها. يا لتصاريف القدر. يا لتصاريف الرب.



كان الموقف مؤثراً فعلًا، حتى أن عيوننا اغرورقت بالدمع المخلص الصادق، دمع الجمع بعد الافتراق، والصحبة بعد التشتت.. كنا معًا ولم نكن معًا طوال الوقت.. يا إلهي الرؤوف الرحيم.

وقبل أن أسألها عن التابوت، أطل شيخ هرم كفيف من فرجة الكوخ، ونادى على ابنته كي تجهز له ماء الوضوء، فهرعت (زهرة) إليه، كأي ابنة بارة عادية، ضمن ملايين الأبناء في (مصر).

ولكنها لم تكن عادية.

كانت قطبًا مقابلاً لجميع الحقائق الوجودية.

قلبها مقابل للعرش.

مقامها يقابل سدرة المنتهى.

عقلها يقابل القلم الأعلى.

نفسها تقابل اللوح المحفوظ.

طبعها يقابل العناصر.

أنظارها تقابل الشمس.

أسماعها تقابل القمر.

تذوقها يقابل الزهرة.

خواطرها تقابل الملائكة.

وسواسها يقابل الجن.

عرفت الكثير فيما بعد، وأدركت لماذا رحل المراكبي، إذ مكثت اليوم كله أنهل ما جهلت، من فيوض الأنوار، وحجب الأستار، وجوهر الأسرار.

صرت من أهل الحب، ورزقت الكرامة.

وبعد مرور سنوات، علمت ما يوجد في قبو ذلك الكوخ البسيط، في الجزيرة النيلية الصغيرة.

علمت أين الطست الذهبي الذي تغسل فيه قلوب الأنبياء.

وأين عصا (موسى).

ومكان الكنز.

****



صدر للكاتب

الطبعة الحداشر – أدب ساخر

شيطان شعري – مجموعة قصصية

النحاس – رواية

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/essam.mansour







Notes

[١ ←]

الطاق هو الطيلسان، جمعه القياسي طيقان أو أطواق ، وكلمة " طواويق " هي جمع استثنائي مفرده طاووق ويوجد في بعض المتون القديمة.

[٢ ←]

(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) – قرآن كريم.

[٣ ←]

(فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) – قرآن كريم.



[٤ ←]

(يخادعون اللّه وهو خادعهم) – قرآن كريم.

[٥ ←]

(إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا) – قرآن كريم.

[٦ ←]

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم) – قرآن كريم.

[٧ ←]

بالعبرية בית המקדש أو بيت المقدس: أكمل بناءه نبي اللّه (سليمان) في سبع سنوات، ودمره الملك البابلي (نبوخذ نصر) في الدمار الأول للهيكل، بعد حصار سنة ٥٨٧ قبل الميلاد.

[٨ ←]

الأبدال في الاصطلاح الصوفي، سبعة رجال، لو سافر أحدهم عن موضع يترك فيه جسداً



على صورته، بحيث لا يعرف أحد أنه فقد.

[٩ ←]

عند أهل التصوف مصطلح شهير، يعني مشاهدة غيوب الأكوان، وظهورها للعبد.

[٢ ←]

قال (الواسطي): الكفر والإيمان، والدنيا والآخرة من اللّه، وإلى اللّه، وباللّه، وللّه: من اللّه ابتداء وإنشاء، وإلى اللّه مرجعًا وانتهاء، وباللّه بقاء وفناء، وللّه ملكًا وخلقًا.